الحديث الحادى والعشرون

قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ فارق الجماعة شبرًا ، فقد خلع ربقةَ الإسلام من عُنقه » .

تخريجه :

الحديث أخرجه أبو داود فى : السّنن : كتاب السُّنة : باب في قتل الخوارج ٤/٢٤١ رقم (٤٧٥٨) من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

والبخارىُّ فى : الصحيح : كتاب الفتن : باب قول النبىِّ ﷺ : « ستَرون بعدى أمورًا تنكرونها » ٧ / ٥٩ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ولكن بلفظ : « مَنْ رأى مِنْ أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه ، فإن مَنْ فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

والحاكم فى : المستدرك : كتاب الإيمان : باب مَنْ خرج مِنَ الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه ١/ ٧٧ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلفظ : « مَنْ خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه، ومَنْ مات وليس عليه إمام جماعة فإن موتته موتة جاهلية » ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » وأقره الذهبى على ذلك فى : تلخيص المستدرك .

وأورده الألبانى فى : صحيح الجامع الصغير ٥/٣٢٦ رقم (٦٢٨٦) قائلا : « رواه أبو ذرٍّ الغفارى » .

معناه :

ينطلق الإسلام فى سنّ تشريعاته ومبادئه منَ الواقع الذى يعيشه الإنسان فى نفسه وفى الكون المحيط به .

وقد نطق الواقع الذى يعيشه الإنسان فى نفسه بأنه لا يستطيع أن يحيا الحياة الصحيحة، الخالية منَ العلل والأمراض إلا إذا تعاونت وتآزرتْ جميع مكوّناته الروحية، والعقلية، والبدنية بحيث يعطف بعضها على بعض، ويرحم بعضها بعضا.

كما نطق الواقع الذى يعيشه الإنسان فى الكون المحيط به بأنه لا يمكن أن يحيا الحياة التى تلبّى فيها جميع حاجياته، ومطالبه، ويصان فيها دينه، ودمه، وماله، وعرضه دون عون، وتأييد من إخوانه، ومن سائر القوى الكونية الأخرى لذا دعا الإسلام إلى الجماعة، وجعل لزومها فرضا أو واجبا يأثم المسلم، ويعاقب على تركه أعظم الإثم، وأشدَّ العقاب .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه، وبيانه الآن تأكيد صادق لذلك ، إذ فيه يحثُّ النبىﷺ على لزوم الجماعة، وعدم مفارقتها .

وسبيل هذا الحثَّ هو بيانُ العاقبة التى ستؤول إليها حال المسلم حين يفارق الجماعة، ويبتعد عنها ولو قيد شبر، وأنها تتلخص فى التخلص من الرباط الذى يربطه بالإسلام .

ولعمرى إن أىّ مسلم سليم العقل، مستقيم الفطرة يقف على هذه العاقبة ويدركها تمام الإدراك يخاف على نفسه الضياع ، والهلاك ، وحينئذ يسارع بالارتماء فى أحضان الجماعة، ويلازمها ويعيش فى كنفها. ولكى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح فإننا سنعرض له من الجوانب التالية:

الجانب الأول : معانى مفردات الحديث .

الجانب الثانى : دور الجماعة فى حياة المسلم .

الجانب الثالث : لزوم الجماعة فى ميزان الإسلام .

الجانب الرابع : شبهات حول لزوم الجماعة ومناقشة هذه الشبهات .

الجانب الخامس : أهم صفات الجماعة الجديرة بالاتباع واللزوم .

ودونك البيان :

أولا : معانى مفردات الحديث :

« مَنْ فارق الجماعة شبرا » :

الشَّبر : هو ما بين طرفى الخنصر والإبهام بالتفريج المعتاد، والمراد : منْ فارق الجماعة، وبعد عنها قدر شبر [١] .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١ / ٤٧٠ .

« فقد خلع ربقة الإسلام منْ عنقه » :

الربقة: ما يجعل فى عنق الدّابة كالطوق يمسكها لئلا تشرد ، والمراد : مَنْ خرج عن طاعة الجماعة وفارقهم فى الأمر المجمع عليه فقد ضلّ ، وهلك ، وكان كالدابة إذا خلعتْ الربقة التى هى محفوظة بها ، فإنها لا يؤمن عليها عند ذلك الهلاك، والضياع [١].

ثانيا : دور الجماعة فى حياة المسلم :

وللجماعة دور كبير فى حياة المسلم يمكن تلخيصه فيما يلى :

١ـ مساعدة المسلم على اكتشاف شخصيته ، وما تنطوى عليه هذه الشخصية من كمال أو نقص ، قوّة أو ضعف :

ذلك أن الإنسان مهما يكن ذكاؤه، ومهما تكن فطنته لا يمكنه وحده أو بمفرده أن يعرف أبعاد ومعالم شخصيته معرفة دقيقة. وإنما لابدّ له من آخرين يساعدونه على ذلك.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: لايستطيع الإنسان أن يكتشف ما فى شخصيته من أثرة وأنانية، أو إيثار وتعاون ، إلا إذا عاش فى جماعة، وخالط أفرادها، ورأى أصحاب الحاجات منهم، ثم تبصّر فى نفسه : هل تقسو وتجمد ، فتشح وتبخل ؟ وحينئذ تكون الأثرة والأنانية، أو ترق وتلين ، فتجود وتعطى ؟ وحينئذ يكون الإيثار والتعاون ، وكذلك لا يمكنه أن يقف على ما فى شخصيته من حلم وأناة، أو حمق وعجلة إلا إذا كان فى جماعة، وصادف طبقات من غير أولى الكياسة، ونظر:

هل يقابل خشونة ألسنتهم باللين، وغلظة قلوبهم بالرفق؟ وهنا يكون الحلم، والأناة، أو يقابلها بمثلها، وأشد؟ وهنا يكون الحمق، والعجلة.

وأيضا لا يعرف الإنسان ما عنده من الشجاعة الأدبية، أو الجبن والخور، إلا إذا لازم الجماعة، ورأى مَنْ يخطئ ثم تأمل نفسه:

هل يهون عليها أن تقول لهذا المخطئ : إن الصواب فى غير ما نطقت والحق فى غير ما رأيت، والخير فى غير ما أتيت ؟ وهنالك تكون الشجاعة الأدبية، أو يعزُّ عليها أن تقول ذلك، فتصمت، وتخرس ؟ وهنالك يكون الجبن، والخور .

---

[١] انظر : معالم السنن للخطابى ٥/ ١١٨ ط دار الحديث ، لبنان ، على هامش السنن .

وبالمثل: لايدرك الإنسان ما تنطوى عليه شخصيته منْ صدق وكذب، منْ أمانة وخيانة، من نظام وفوضى، إلا إذا عاش فى وسط جماعة، وحدّث أفرادها، وائتمنوه على دمائهم، وأموالهم وأعراضهم، أو ضرب لهم موعدا، أو أعطى منْ نفسه عهدا لهم ثم نظر:

هل يحدثهم بما يوافق الحقيقة والواقع ؟ فيكون صدوقا، أو بما يخالفهما ؟ فيكون كذابا، وهل يحافظ على دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم ؟ فيكون أمينا، أو يعتدى عليها، ويهدرها ؟ فيكون خائنًا، وهل يحافظ على عهده، ويفى بوعده ؟ فيكون دقيقا، منضبطا ، منظما ، أو يهمل ، ويخلف ؟ فيكون فوضويا غير دقيق ، ولا منضبط ، ولا منظم .

وهكذا تعدُّ الجماعة حقلا تجريبيا، يطلع المسلم منْ خلاله على ما فى شخصيته من كمال أو قصور، قوة أو ضعف، الأمر الذى ييسر عليه أن يعمل ـ إن كان جادّا فى إقامة هذا الدين في نفسه ـ على تنمية ورعاية جوانب القوّة، وتقويم، وتكميل جوانب الضعف .

وفى القصة التالية ما يشرح هذا الدور، ويبرزه بجلاء ووضوح، جاء فى حديث معاوية بن قرّة، عن عائذ بن عمرو: أن سلمان ، وصهيبا، وبلالا كانوا قعودا فى أناس، فمرَّ بهم أبو سفيان بن حرب، فقالوا: ما أخذتْ سيوف الله ـ تبارك وتعالى ـ منْ عنق عدو الله مأخذها بعدُ ، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش ، وسيّدها ؟ قال: فأخبر بذلك النبى ﷺ فقال : « يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم فلو كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك ـ تبارك وتعالى؟ » فرجع إليهم،فقال: أىْ إخوتنا، لعلكم غضبتم ؟ فقالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك .

إن أبا بكر ما كان له أن يدرك مثل هذا العيب، لولا وجوده بين الجماعة وفى وسطها، الأمر الذى سهل عليه العلاج، والتداوى .

الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب منْ فضائل سلمان وصهيب، وبلال ﷺ ٤/١٩٤٧ رقم (١٧٠)، والنسائى فى : السُّنن الكبرى: كتاب المناقب [تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للحافظ المزّى ٤/٢٣٧ رقم (٥٠٥٧)]، وأحمد فى : المسند ٥/٦٤ ، ٦٥ كلهم من حديث عائذ بن عمرو ﷺ مرفوعا ، واللفظ لمسلم .

وقد لفت النبى ﷺ الأنظار إلى مثل هذا الدور للجماعة حين قال: « المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه» [١] .

وكأنه يقول :

إن الطريق التى يعرف بها المسلم عيبه، ومواطن القصور أو الضعف فى شخصيته، إنما هى الجماعة؛ لأنها بالنسبه له كالمرآة، والشأن فيمن يعرف عيبه، ويدرك قصوره وضعفه أن يسعى جاهدا لإصلاح وتهذيب هذا العيب، كما يصنع مَنْ يقف أمام المرآة، وتدلُّه على حاله.

٢ـ وإصلاح . وتهذيب . وتقويم ما عساه يكون فى شخصيته من قصور أو ضعف . أو عوج

ذلك أن الجماعة ساعدت المسلمَ على اكتشاف عيبه، أو علمت أنه اكتشفه بنفسه، لكنه لم يبادر إلى التخلص منه لسبب أو لآخر بادرتْ هى إلى القيام بدورها نحوه :

فتارة تمارس أمامه الصورة الصحيحة والنموذج الأمثل ليقتدى، ويتأسى ، وتارةً تستخدم النصيحة بشروطها وآدابها ، وتارة تلجئه إلى العتاب واللوم، أو التوبيخ، والتقريع، وتارة تستخدم الهجر والقطيعة لأمد معين .

وهكذا تمارس الجماعة مختلف الأساليب والوسائل، وتسلك سائر الطرق وشتّى السبل ؛ لتعود بشخصية هذا المسلم إلى ماينبغى ، والحديث التالى يشرح هذا الدور بجلاء ووضوح :

عن أبى جحيفة رضي الله عنه قال : آخى النبىّ ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمانُ أبا الدرداء ، فرأى أمَّ الدرداء متبذّلة، فقال لها: ما شأنك ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء، ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كُلْ فإنّى صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال : نمْ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال: نمْ، فلما كان من آخر الليل ، قال سلمان : قم الآن، فصليا، فقال له سلمان :

---

[١] الحديث أخرجه أبو داود فى : السّنن : كتاب الأدب : باب فى النصيحة والحياطة ٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٨)، والبخارىّ فى : الأدب المفرد : باب المسلم مرآة أخيه ص ١٠٧ ، ٢٣٨، ٢٣٩ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا ، واللفظ لأبى داود .

إن لربّك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حقّ حقّه.

ثم أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبىُّ ﷺ: «صدق سلمان» [(١)].

إن هذا الحديث يكشف لنا بجلاء ووضوح عن دور الجماعة فى مساعدة المسلم على التخلص من آفاته، وعيوبه، إن عجز هو عن علاج ذلك بنفسه.

ولعل هذا الدور هو الذى عناه النبىُّ ﷺ حين قال: «المؤمن مرآة المؤمن... إن رأى فيه عيبا قوّمه» [(٢)]. وحين قال: «إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق: إن نسى ذكّره، وإن ذكر أعانه: وإذا أراد الله به غير ذلك، جعل له وزير سوء: إن نسى لم يذكّره، وإن ذكر لم يعنه» [(٣)].

٣- وتوظيف سائر طاقات المسلم، وإعمال كل غرائزه بما يؤدى إلى التوازن والتكامل فى شخصيته، ويقضى على أىّ فراغ يمكن أن يستغله شياطين الإنس والجنّ فى إغوائه، وإضلاله:

ذلك أن الإنسان - كما هو معلوم - مؤلف من جسد وعقل وروح، وبعبارة أخرى: من مادة وروح، والروح مزوّد بطائفة من الغرائز تشبه الخطوط الدقيقة، المتقابلة، المتوازية.

كل غريزتين منها متجاورتان فى النفس، فهما فى الوقت ذاته مختلفتان فى الاتجاه: الخوف والرجاء، الحب والكره، الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال، الطاقة الحسية والطاقة المعنوية، الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لاتدركه الحواس، حب الالتزام والميل للتطوع، الفردية والجماعية، السلبية والإيجابية... إلخ كلها غرائز متوازية، ومتقابلة كما ترى، وهى بتوازيها وتقابلها، تؤدى مهمتها فى ربط الكائن البشرى بالحياة، كأنما هى أوتاد متفرقة متقابلة، تشد، الكيان كله، وتربطه من كل

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الصوم: باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ٣/ ٤٩، ٥٠، وكتاب الأدب: باب صنع الطعام والتكلف للضيف ٨/ ٤٠، والترمذى فى: السّنن: كتاب الزهد: باب منه ٤/ ٥٢٦ رقم (٢٤١٣)، كلاهما من حديث أبى جحيفة، عن سلمان مرفوعا به، وعقب الترمذى على حديثه قائلا: «هذا حديث صحيح».

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١١.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السُّنن: كتاب الخراج والإمارة والفىء: باب فى اتخاذ الوزير ٣ / ٣٤٥ رقم (٢٩٣٢) من حديث عائشة مرفوعا بهذا اللفظ.

جانب يصلح للارتباط، وهي فى الوقت ذاته توسع أفقه، وتفسح مجال حياته، فلا ينحصر فى نطاق واحد، ولا فى مستوى واحد .

بَيْد أن تحقيق التوازن والتكامل فى حياة المسلم ، مرهون بإعطاء كل غريزة من هذه الغرائز حقّها دون زيادة أو نقص، فمثلا : الحبُّ والبغض يعملان لدى المسلم في وقت واحد في قوله تعالى : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم** ﴾ [الفتح : ٢٩] ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين** ﴾ [المائدة : ٥٤] ؛ نظرا لأن لكلّ منهما مجاله الذى يعمل فيه فلا تعارض.

وتعد الجماعة الحقل الوحيد الذى يوظف سائر طاقات المسلم، ويعمل كلّ الغرائز بدرجات متساوية، ومتوازية في نفس الوقت، الأمر الذى يؤدى إلى تكوين الشخصية السويّة ، المتزنة ،المتكاملة ،الخالية منْ أىّ انفصام أو عوج، والمحصّنة ضد كيد الشيطان وإغوائه ، ولعلّ هذا هو ما أشار إليه النبىﷺ بقوله : « عليكم بالجماعة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، منْ أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة »[(١)] .

٤ـ وتزويده بكثير من الخبرات والتجارب التى تعينه على مواجهة ما يعترض طريقه منْ صعاب ، وعقبات :

ذلك أن طريق العمل لدين الله طريق مليئة بالعقبات ، محفوفة بالمخاطر، والمسلمُ الحصيف الذكىُّ هو الذى تكون لديه الخبرة أو التجربة، التى تعينه فى التغلب على هذه العقبات، والنجاة منْ تلك المخاطر.

وليس هناك مجال أرحب، وأوسع يكتسب فيه المسلم الخبرات ويتعلم التجارب سوى الجماعة.

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفسّر دقّة السلوكيات، والتصرفات الواقعة من الفرد المخالط للجماعة، عن نظيراتها من الفرد الذى يعيش وحده ، وفى الواقع الذى نعيشه عشرات الأمثلة التى تؤكد ذلك .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الفتن : باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ رقم (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، غريب منْ هذا الوجه »، والحاكم فى : المستدرك : كتاب العلم : باب خطبة عمر بالجابية ١/ ١١٣ ـ ١١٥ من حديث عمر بن الخطاب مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . . . ولم يخرجاه » .

وسأكتفى من هذا الواقع بهذا المثال:

« حدث في ٤ من فبراير ١٩٤٢م إبان الاحتلال الإنجليزى لمصر، أن طلب الإنجليز من الملك فاروق، ملك مصر، أن يدعو حزب الوفد لتولى الوزارة، وهدّدوه باقتحام قصره بالدّبابات الإنجليزية، إذا لم يلبّ طلبهم، وقد فعل، وكان الإنجليز يهدفون منْ وراء ذلك إلى تحطيم حزب الوفد الممثل للأغلبية، لعلمهم بأن الذى يتولى الحكم فى ظروف الحرب التى تلازمها دائما قسوة الحياة، وصعوبة وسائل التموين، مع تعرض البلاد للغارات .. كل ذلك سيغرس الكراهية فى نفوس الشعب للجالس على قمّة الحكم ، وقد ستروا هذا الهدف بما راج أيامها على ألسنة الناس منْ أنّ الدافع هو أنهم فى ظروف حرب، ويجب أن يكون فى الحكم حزب الأغلبية حتى يضمنوا فى البلاد هدوءا يساعدهم على التفرغ لشئون الحرب وقد تحقق للإنجليز فعلا ما أرادوا .

وخرج الوفد من هذه الجولة فى الحكم خاسرا .

وجاءتْ على أعقابه حكومة سعدية برئاسة أحمد ماهر، ورأى القصر بعد نحو من سنتين منْ هذه الحادثة أن يذكر الناس؛ بها تأليبا للشعب على الوفد، فأوحى إلى مواليه السعديين أن يدبروا خطة لذلك ، ورأى السعديون أنهم لكى يحققوا ذلك، لابدّ لهم منْ أن يتعاونوا مع الأحزاب الأخرى ، والهيئات المختلفة ، فاتصلوا فى سرية تامة بالأحرار الدستوريين، والحزب الوطنى، والحزب الاشتراكى ومجموعة من الأحزاب، والهيئات ، والحركات ، كانت موجودةً في ذلك الوقت .

واستجاب الجميع إلى عقد اجتماع سرّى لهذا الغرض ماعدا الحركة الإسلامية التى رفضت فى أول الأمر بدعوى أن فى مجموعة الأحزاب والهيئات التى استجابتْ الكفاية، ولايضرهم تخلف هيئة واحدة لكن السعديين ألحوا إلحاحا شديدا، فاستجابت الحركة أخيرا، مكتفية بإيفاد عضو صغير كان لايزال ـ إذ ذاك ـ طالبا بكلية الحقوق، وكان هذا العضو هو الطالب : سعيد رمضان .

وانعقد الاجتماع فعلا في ظلّ الكتمان برياسة الدكتور السنهورى ـ أحد الزعماء البارزين فى حزب السعديين ـ وأخذ الدكتور السنهورى يشرح المقصود من الاجتماع، وهو أن تقوم الهيئات الحاضرة، متضامنة بحركة عنيفة ، كمظاهرة ، تذكر الناس بحادثة ٤ من فبراير ١٩٤٢م ، وبأن الوفد جاء إلى الحكم على أسنّة رماح الإنجليز، ولا مانع منَ القيام ببعض التفجيرات، لإيقاف حركة المواصلات إثارة لانتباه الجماهير، ثم طلب

السنهورى من ممثلى الأحزاب والهيئات الحاضرين، أن يدلى كلّ برأيه ففعلوا، وكان إجماعا بالموافقة على اقتراح السنهورى، فتهلّل وجهه فرحا .

كان الطالب سعيد رمضان ممثل الحركة الإسلامية آخر المتكلمين، وكان فعلا أصغر الموجودين سنّا، ومركزا اجتماعيا، فلما جاء دوره قال: إننى لا أوافق على هذه الخطة، ولن تشترك الحركة الإسلامية فى شىء منها، فكانت كلماته بمثابة ديناميت نسف الاجتماع كلّه؛ لأنه كان بمثابة مركز الثقل فى هذا الاجتماع؛ والتفت إليه السنهورى باشا مغضبا، وسأله عن سبب رفضه، فقال سعيد : ياسعادة الباشا، أرجو ـ بعد أن تحدثت فى الاجتماع بكل ما فى نفسك ـ أن تعرفنى بالموجودين فيه فردا فردا، كلاّ باسمه، فالتفت السنهورى إلى الموجودين ، فوجد نفسه عاجزا عن معرفة أكثرهم، فقال سعيد : إن اجتماعا على هذه الغاية من السرّية ، وللاتفاق على أعمال خطيرة لا يعرف رئيس الاجتماع أسماء الحاضرين ولا شخصياتهم ، لهو اجتماع فاشل، لم يكن يستحق أن نحضره ، وما حضرنا إلا بعد إلحاحكم ، ولنثبت لكم ياسعادة الباشا ـ مع احترامى لشخصك ـ أنكم تتصرفون تصرف الأطفال .

وما كاد يخرج المجتمعون ، وما كادوا يصلون إلى مقر هيئاتهم ، وإلى بيوتهم إلا وأطبق البوليس السرّى عليهم، واقتادوهم فرادى إلى وزارة الداخلية، وواجهوا كلا منهم بما قاله فى الاجتماع بالحرف الواحد، مما دل ـ كما أشار سعيد ـ على أنه كان بين الحاضرين أشخاص مدسوسون من عملاء البوليس السياسى »[1] .

ومغزى هذا المثال يكمن فى أن فردا صغيرا تربى فى أحضان جماعة مسلمة ملتزمة بالإسلام بشموله ، وعمومه ، استطاع تقييم اجتماع خطير كهذا تقييما أكد الواقع صحته، وصوابه ، بينما أخطأ أساتذة كبار ـ يعيشون لحالهم ، أو مع آخرين يلغون الإسلام من حساباتهم بالمرّة ـ خطأ أوقفهم، ومن معهم مواقف حرجة لايرضى بها ولاعنها حرٌ أبى كريم .

٥ ـ وبث الأمل فى نفس المسلم ، ودفع اليأس عنه :

ذلك أن المسلم الذى يعمل بدين الله ولدين الله منفردا ، يعتريه بين الحين والحين خاطر : ماذا أصنع وحدى، وأعداء الله فى داخل الأمة وخارجها كثر، ولهم خططهم وأساليبهم الماكرة، وهم الآن ممسكون بخناق العالم الإسلامى ؟

---

[1] انظر : أحداث صنعت التاريخ للأستاذ محمود عبد الحليم ١/ ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

ولايزال هذا الخاطر يلح عليه، ويحيط به، ويحاصره، وليس عنده ما يدفعه به، حتى يدب اليأس والقنوط إلى نفسه، فيترك العمل لدين الله . أمّا إذا كان يعمل بهذا الدين وله من خلال جماعة ، وعرض له مثل هذا الخاطر، فإنه يستطيع دفعه بأنه ليس وحيدا فى الميدان ، وإنما هنالك آخرون غيره ، يسيرون معه فى نفس الطريق ، ولهم من الوسائل والأساليب والإمكانيات ما يعينهم على مواجهة أعدائهم ، وإحباط مكايدهم ومخططاتهم .

وهكذا تبثّ الجماعة فى نفس المسلم الثقة والأمل بأن نصر الله آت لا محالة، وأن السيادة والغلبة والتمكين ستكون لدين الله عزّ وجلّ، وإن طال الليل وكثرت العقبات والمعوّقات .

٦ ـ وتجديد نشاط المسلم بما يقوى عزيمته ، ويعلى همّته ، ويضاعف من جهده :

ذلك أن المسلم تعتريه فى بعض الأحيان حال من الفتور والتراخى ، بسبب ضخامة الأعباء، وبعد الطريق، ومشقة العمل، فإذا ما التقى بإخوانه من المسلمين، وتفرس نور الطاعة فى وجوههم، ورأى شدة خشوعهم، وكثرة إقبالهم على ربهم، زال هذا الفتور وذلك التراخى، وامتلأ حماسا، وحيوية، ونشاطا، فيضاعف من جهده، وكأنما لم يعمل لدين الله منْ قبل .

وقد أشار النبىُّ ﷺ إلى هذا الدور حين قال : « ألا أخبركم بخير الناس ؟ » قالوا: بلى ، يا رسول الله، قال : « منْ تذكركم رؤيته بالله عزّ وجلّ » (١) .

٧ ـ وفتح مجالات تحصيل الأجر والثواب :

ذلك أن المسلم مع الجماعة يجد الفرصة أمامه سانحة لتحصيل مزيد من الأجر والثواب، فهو يسلم على المؤمنين، وينصح لهم، ويلبى دعوتهم، ويشمت عاطسهم، ويعود مريضهم، ويشيّع ميتهم، ويتفقد غائبهم، ويودع مسافرهم ، ويستقبل قادمهم ، ويقرض محتاجهم ، ويفرج عن مكروبهم ، ويهدى لهم ، ويقبل هديتهم ، ويشير

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب منْ لايؤبه له ٢/ ١٣٧٩ رقم (٤١١٩) من حديث سويد بن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن سليم ، عن أبى خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أنبئكم بخياركم ؟ » قالوا : بلى ، يارسول الله ، قال : « خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله عزّ وجلّ »، وأورده البوصيرى فى مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ٤/ ٢١٥، وعقّب عليه بقوله: « هذا إسناد حسن، وشهر وسويد مختلف فيهما، وباقى رجال الإسناد ثقات ، وكذا رواه أبو بكر بن أبى شيبة فى مسنده ، وكذا عبد بن حميد فى مسنده ، وأبو يعلى الموصلى فى مسنده من طريق شهر بن حوشب به » .

عليهم ، ويستشيرهم ، ويعلم جاهلهم،ويتعلم منْ عالمهم ، إلى غير ذلك من المجالات المؤدية إلى الأجر والثواب.

أمَّا إذا كان وحده، فأنّى له أن يقوم بشيء منْ ذلك ؟ والمجال أمامه مغلق، والطريق فى وجهه مسدودة.

٨ ـ والظفر بالعون والتأييد الإلهى:

ذلك أن المسلمين مهما كانت كثرتهم، وضخامة استعدادهم بحاجة إلى عون وتأييد من الله عز وجل ، خالق كل شيء ومالكه ، ومدبر أمره والمتصرف فيه. ولاسيّما فى هذا الوقت الذى ضربتْ فيه الجاهلية أطنابها بكل مكان ، وأمسك أعداء الله بخناق العالم الإسلامى، ولم يعد هناك متنفس أو منقذ إلا الله عزوجل .

وقد مضتْ سنة الله . . . ألا ينزل نصره الكامل، وتأييده التام لعباده دون تضحيات وتكاليف. وأبسط هذه التضحيات، وتلك التكاليف أن يجاهد المسلم نفسه وهواه، وأن يكون مع الجماعة، ينفذ ما تأمر به ويجتنب ما تنهى عنه . وقد لفت النبى ﷺ الأنظار إلى هذا المعنى حين قال: « يد الله مع الجماعة » [١] .

٩ـ الإعانة على تأدية الواجب نحو دين الله عزوجل:

ذلك أن منْ واجب المسلم نحو دين الله عز وجل، الدعوة إلى هذا الدين والجهاد فى سبيله حتى يمكن له فى الأرض ،وتبقى رايته عالية فى العالمين ، وليس بمقدور المسلم أن يقوم بهذين الواجبين على أكمل وأتم وجه وحده ، بل لابد له منْ أعوان يشدون أزره ، ويقوون عضده ، ويعينونه على أمره . ولعل أوضح مثال يؤكد لنا عجز المسلم عن القيام بهذين الواجبين وحده، رغيف الخبز، فإنه مع صغر حجمه لا يصل إلى الإنسان إلا بعد عمل عشرات بل مئات من البشر، تعاونتْ جميعا على تجهيزه، وإعداده، وتقديمه، ومنْ كان فى شكّ من ذلك فليسأل نفسه: منْ حرث الأرض؟ ومنْ بذر فيها الحبّ ؟ ومن سقاه بالماء ؟ ومن اقتلع الحشائش الضارة منه ؟ ومن حصده ؟ ومنْ درسه، وفصل الحبّ عن التبن ؟ ومَنْ طحنه ؟ ومَنْ عجنه ؟ ومنْ خبزه ؟ ومنْ سوّاه بالنار؟ ومنْ حمله إلينا؟ ومَنْ ؟ ومَنْ ؟ . . .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الفتن : باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤/ ٤٠٥ رقم (٢١٦٦) من حديث ابن عباس مرفوعا بهذا اللفظ، ثم عقّب عليه بقوله: « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه »، وأخرجه النسائى فى : السنن : كتاب تحريم الدم : باب قتل منْ فارق الجماعة ٧/ ٩٢، ٩٣ من حديث عرفجة بن شريح الأشجعى مرفوعا به .

هذا فضلا عن القوى الكونية الأخرى، كالشمس، والهواء ، والماء، والتربة . . . وفوق هذا وذاك يد الله ـ عزّ وجلّ ـ حيث يقول سبحانه: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)** ﴾ [الواقعة] .

وعليه ، فمن زعم أن بوسعه الاعتماد على نفسه فى تحصيل هذا الرغيف الصغير فى حجمه ؛ البسيط فى مكوّناته ، فإنه سيموت ، أو يشرف على الموت قبل أن يحصل عليه .

وإذا كانت الحال كذلك فى أمر بسيط هيّن كرغيف الخبز، فكيف لو كان الأمر أمر دعوة وجهاد ؛ من أجل حماية منهج الله، والتمكين له فى الأرض، ولعلَّ هذا هو ماعناه الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ حين قال: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)** ﴾ [آل عمران] ، ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٣٩] ، ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)** ﴾ [التوبة]، ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ** ﴾ [التوبة] ، ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾ [الحج : ٧٨]

فكلف كلّ واحد بهذه المهمّة فى صورة خطاب جماعى، ولم يكلّفه فى صورة خطاب فردى، إشارة إلى أن كل واحد لا يستطيع أن ينهض بمهمته وحده وإنما بمعاونة ومساندة الآخرين .

١٠ ـ حماية دم المسلم ، وحرمته ، وكرامته

فلا يجرؤ الأعداء على إيذائه، أو التطاول عليه فى دم، أو مال، أو عرض ؛ لأن له مِنْ جماعة المؤمنين ظهيرا نصيرا ، وحتى لو تجرأ هؤلاء فآذوه فى دم ، أو مال ، أو عرض ، فإن إخوانه سينصفونه، وسيردّون له مظلمته، على نحو ما حدث حين اعتدى يهود بنى قينقاع على حرمة امرأة مسلمة وإجلاء النبىّ ﷺ لهم ، وكما حدث حين لطم الرومىّ المرأة المسلمة فى عمورية، واستنجدت بالخليفة المعتصم بالله العبَّاسى،

فجهز الخليفة جيشا ضخما ، آخره عنده، وأوله فى عمورية ؛ لتأديب الروم على هذه الفعلة القبيحة .

هذا هو شأن المسلم حين يكون فى جماعة، أمّا إذا كان وحده، فإن الأعداء سيتربصون به الدوائر ، وسيكيدون له بكل ما أوتوا منْ قوّة ووسيلة، ولعل هذا هو السّر فى حرص الأعداء على أن يظل المسلمون منْقسمين على أنفسهم ، إيمانا منهم بأن السيطرة عليهم، والإذلال لهم، ونهب ثرواتهم وخيرات بلادهم، كل ذلك لايتم إلا فى جوٍّ من الفرقة والشقاق، ومن شعاراتهم فى هذا الصدد: « فرّقْ تسُدْ » .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن ندرك الهدف منْ أمر الله عزّ وجلّ للجماعة المسلمة بالوحدة ، ونبذ الفرقة ، والتنازع : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران :١٠٣] ، ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)** ﴾ [آل عمران] ، ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

ثالثا : لزوم الجماعة فى ميزان الإسلام :

وإذا كان هذا هو دور الجماعة فى حياة المسلم، فإن على كلّ مسلم صادق يحترم عقله، ويعتز بإنسانيته وكرامته، ويخلص لدينه، ويريد العمل من أجل حمايته، والتمكين له، أن يسير مع الجماعة وأن يلتزم بها، وألا يفارقها قيد شعرة .

بيد أن بعض النّاس قد يظنُّ أن لزوم الجماعة ليس أمرًا حتميا، وإنّما هو تطوع ؛ منْ أراد أن يلزم الجماعة لزم، ومنْ رغب عنها فلا حرج . منْ هنا نعود فنؤكد أن لزوم الجماعة ليس تطوّعا أو منّةً منْ أحد على الله، بل هو فريضة شرعية وضرورة بشرية، وسنّة كونية .

أمّا أنه فريضة شرعية فلأدلة كثيرة ، منها :

أ ـ النصوص الكثيرة الدالة على ذلك صراحة أو ضمنا ،كقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة : ٢]، ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ [آل عمران]

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

[الروم]

وكقوله ﷺ : « عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد . . . » (١) ، « منْ فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام منْ عنقه» (٢) ، « يد الله مع الجماعة » (٣) ، « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهنّ : بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله، فإن مَنْ خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام منْ عنقه إلى أن يرجع » قالوا : يا رسول الله، وإن صلى، وصام ؟ قال : « وإن صام، وصلى، وزعم أنّه مسلم » (٤) ، « إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية، والناحية، وإياكم والشعَاب، وعليكم بالجماعة، والعامة » (٥)، « . . . تلزم جماعة المسلمين، وإمامهم »(٦) ردًا على حذيفة بن اليمان حين قال للنبى ﷺ : فما تأمرنى ؟

إلى غير ذلك من النصوص التى تدل دلالة لا تحتمل تأويلا على فرضية لزوم الجماعة، وتبيَّن أن البعد، والتفرد، والعزلة، تعنى الشتات والذلّ، والهوان فى الدنيا، والعذاب الشديد فى الآخرة .

ب ـ ولأن هذا هو المنهج الذى سلكه رسول الله ﷺ فى تشييد دولة الإسلام الأولى، والتمكين لدين الله فى الأرض، فقد حرص ﷺ لأول وهلة على الظّفر، والانحياز إلى جماعة تؤيده، وتؤازره، وتعينه على أمره وكان يقول للناس ـ وهو

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٣ .
(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٧ .
(٣) الحديث سبق تخريجه ص ١٧ .
(٤) الحديث سيأتى تخريجه فى شرح حديث : « آمركم بثلاث، وأنهاكم عن ثلاث ».
(٥) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب لزوم الجماعة . . . ٥/٢١٩ من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعا ، وعقّب عليه بقوله : « رواه أحمد، والطبرانى، ورجال أحمد ثقات إلا أنّ العلاء بن زياد قيل : إنه لم يسمع من معاذ » .
(٦) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الفتن : باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ٩ / ٦٥ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ٣/١٤٧٥ ، ١٤٧٦ رقم (٥١) ، كلاهما منْ حديث حذيفة بن اليمان مرفوعا، واللفظ للبخارى.

يعرض نفسه عليهم فى موسم الحج، وفى أسواقهم العامّة، الجامعة، كعكاظ وغيرها : « ألا رجل يحملنى إلى قومه، فإن قريشًا منعونى أن أبلغ كلام ربّى ؟ » [١].

وما زال كذلك حتى قيض الله له نفرا من الأوس والخزرج، حملوه إلى المدينة المنوّرة ، وبذلوا الأرواح والمهج فداءً له ولدعوته ،حتى تمّت كلمة ربه الحسنى ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وإذا كان هذا هو المنهج الذى سلكه رسول الله ﷺ دون غيره فى إقامة دولة الإسلام، فإن الواجب والمفروض علينا أن نقتدى وأن نتأسّى به ﷺ؛ حيث لم يرد دليل بأن هذا من خصوصياته ﷺ ولنا فى رسول الله الأسوة والقدوة : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)** ﴾ [الأحزاب]، ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ﴿**وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)** ﴾ [الأعراف] .

جـ ـ ولأنه الطريق لقيام المسلم بالواجبات المفروضة عليه، ولاسيّما واجب الدعوة إلى الله، والبلاغ . . . وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، ولعل هذا هو السّر فى توجيه الخطاب ـ بالنسبة لهذه الواجبات ـ إلى الجماعة كلها، لا إلى فرد بعينه، إذ يقول سبحانه: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ، ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾ [الحج : ٧٨]، ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٤١]، ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٢)**﴾ [آل عمران]، ويقول النبى ﷺ: « بلغوا عنى ولو آية »[٢]، «جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم » [٣] إلى غير ذلك من النصوص .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب السنة : باب فى القرآن ٤ / ٢٣٤ رقم (٤٧٣٤) ، والترمذى فى: السنن: كتاب فضائل القرآن: باب منه ٥ / ١٦٨رقم (٢٩٢٥)، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية ١/ ٧٣ رقم (٢٠١)، وأحمد فى : المسند ٣/ ٣٢٢، كلهم من حديث جابر ابن عبد الله ﷺ مرفوعا، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث غريب صحيح » .

(٢) الحديث سيأتى تخريجه فى شرح الحديث السادس والعشرين إن شاء الله تعالى.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد : باب كراهية ترك الغزو ٣ / ١٠رقم (٢٥٠٤) ، والنسائى فى : السنن : كتاب الجهاد : باب فى وجوب الجهاد ٦/ ٧ رقم (٣٠٩٦٠) ، والدارمى فى : السنن: كتاب الجهاد : باب جهاد المشركين باللسان واليد ٢/ ٦٥٩ رقم (٢٣٤١)، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٢٤، ١٥٣، ٢٥١، والحاكم فى : المستدرك : كتاب الجهاد : باب ذكر ليلة أفضل من ليلة القدر ٢/ ٨١ ، كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعا .

د ـ ولأن هناك طائفة من التشريعات يمكن للمسلم أن يؤديها بصورة فردية، بيد أنّ الإسلام أكد فيها على معنى الجماعية، وشدّد على ذلك ، مثل صلاة الجماعة : بقوله ﷺ : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة »[١] ، وفى رواية : « بخمس وعشرين درجة » [٢] ، « ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلا فيصلىّ بالناس ، ثم أنطلق معى برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرّق عليهم بيوتهم بالنّار » [٣].

ومثل الصيام المفروض فى رمضان ، فإنه مشاركة جماعية ، ومساواة فى الجوع فى فترة معينة من الزمان، مع أنه يمكن أن يقع بصورة فردية.

ومثل الحج، فإنه ملتقى عام للمسلمين جميعا منْ كل عام، يجتمعون من كل أطراف الأرض على أقدس غاية ، وفى يوم واحد هو يوم عرفة ، حتى قال ﷺ : « الحجُّ الحجُّ يومُ عرفة . . . » [٤].

ومثل تعلّم العلم ، وتعليمه : « . . .وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجماعة والإمامة: باب فضل صلاة الجماعة ١/ ٢٣١، ومسلم فى : الصحيح : كتاب المساجد، ومواضع الصلاة : باب فضل صلاة الجماعة ١/ ٤٥٠، ٤٥١ رقم(٢٤٩ ، ٢٥٠) ، كلاهما من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا ،واللفظ للبخارى .

(٢) هذه الرواية أخرجها البخارى فى : الصحيح : كتاب الجماعة والإمامة : باب فضل صلاة الجماعة ، وباب فضل صلاة الفجر فى جماعة ١/ ٢٣١، ٢٣٢ رقم (٦١٩ ـ ٦٢١)، ومسلم فى : الصحيح : كتاب المساجد، ومواضع الصلاة : باب فضل صلاة الجماعة ١/ ٤٤٩، ٤٥٠ رقم (٢٤٥ ـ ٢٤٨) ، كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجماعة والإمامة : باب وجوب صلاة الجماعة ، وباب فضل العشاء فى الجماعة ١/ ٢٣١، ٢٣٤ رقم (٦١٨ ،٦٢٦)، ومسلم فى : الصحيح: كتاب المساجد، ومواضع الصّلاة: باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد فى التخلف عنها ١/ ٤٥١، ٤٥٢ رقم (٢٥١ ـ ٢٥٣) ، كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعا، واللفظ لمسلم .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب المناسك : باب منْ لم يدرك عرفة ٢/ ١٩٦ رقم (١٩٤٩)، والترمذى فى : السنن : كتاب الحج : باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج ٣ /٢٣٧ رقم (٨٨٩)، والنسائى فى : السنن : كتاب الحج : باب فرض الوقوف بعرفة، وباب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة ٥/ ٢٥٦ ، ٢٦٤، ٢٦٥ رقم (٣٠١٦، ٣٠٤٤)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب المناسك: باب منْ أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع ٢/ ١٠٠٣ رقم (٣٠١٥) ، والدارمىّ فى : السنن: كتاب المناسك: باب بم يتم الحج ؟ ١/ ٤٨٨ رقم (١٨٢٧)، وأحمد فى: المسند ٤/ ٢٦١، ٢٦٢ ، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلى مرفوعا .

كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[١] ، وكان يمكن أن يؤدى بصورة فردية.

ومثل صلاة الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، والكسوف والخسوف ونحوها .

وأبعد من هذا حرص الرسول ﷺ على أن يجتمع المسلمون حتى فى المظهر الشكلى، فقد رآهم يوما، وهم يجلسون متفرقين، فقال لهم: « اجتمعوا »، فاجتمعوا، يقول راوى الحديث: فلو بسط عليهم ثوبه (لوسعهم) . . . »[٢].

وانطلاقا من ذلك نستطيع القول بأنه إذا كانتْ الجماعة مؤكّدة ولازمة فى التشريعات التى يمكن أن تقع بصورة فردية، فإنها تكون ـ من باب أولى ـ أشد تأكيدا، وأكثر إلزاما من تلك التى لايمكن أن تقع كاملة إلا بصورة جماعية، مثل الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر والجهاد، ولاسيما فى هذا العصر، الذى أمسك فيه الباطل بزمام الحياة، وتعبّد الناس بمنهج غير منهج الله ـ عزّ وجلّ .

وأما إنّه ضرورة بشرية فلأدلة، منها :

أ ـ أن الكفار والمنافقين ـ كما هو معلوم ومشاهد منْ أحوالهم ـ يقفون موقف التكتل، والتحزب من الإسلام، والدعوة إليه، فتراهم يحشدون، ويجمعون، ويتعاونون فيما بينهم فى شكل أحلاف عسكرية: (حلف وارسو سابقا ـ حلف الأطلنطى)، وفى شكل أسواق تجارية: (السوق الأوربية المشتركة)، وفى شكل برلمانات، وهيئات سياسية: (البرلمان الأوربى)، وفى شكل اتحادات جمهورية، وولاياتية : (جمهوريات الاتحاد السوفيتى سابقا ـ الولايات المتحدة الأمريكية). كل هذا منْ أجل السيطرة على ديار المسلمين، لابتزاز ثرواتهم، وخيراتهم، وإذلالهم، واضطرارهم إلى أحد أمرين: إمّا الكفر، وإمّا القتل: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** ﴾ [التوبة : ٦٧] ، ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/ ٢٠٧٤ رقم (٣٨ ، ٣٩)،وأبو داود فى: السنن: كتاب الصلاة: باب فى ثواب قراءة القرآن ٢/ ٧١ رقم (١٤٥٦) ، والترمذى فى: السنن: كتاب القراءات : باب منه ٥/ ١٧٩ رقم (٢٩٤٥)، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب فضل العلماء ١/ ٨٢ رقم (٢٢٥)، وكتاب الأدب : باب فضل الذكر ٢/ ١٢٤٥ رقم (٣٧٩١)، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٥٢، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٤٧، كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا إلا أحمد فإنه عنده من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى .

(٢) الحديث سيأتى تخريجه فى شرح الحديث الثالث والعشرين بإذن الله تعالى .

[البقرة : ١٢٠] ، ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ [الكهف] ، ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ﴾ [الممتحنة] .

والردُّ العملى على هؤلاء أن يلزم المسلم إخوانه، فتكون لهم جماعة قادرة على مواجهة أهل الكفر والإلحاد ، وكبح جماحهم ، بل وعاملة على زحزحة وإزاحة هؤلاء من طريق البشر ليعيشوا أحراراً ، وقد نبه الحقُّ سبحانه وتعالى إلى ذلك حين قال: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ [الانفال] ، ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [التوبة : ٣٦].

ب ـ وأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى هذا الكون، وأن يكون سيداً فيه دون أن يُعينه أو أن يعاونه الآخرون، وقد قدّمنا على ذلك مثالا من الواقع ألا وهو رغيف الخبز، أبسط شىء وأيسره فى هذه الحياة، فكيف إذا تعدّى الأمر ذلك إلى العمل من أجل حماية دين الله، ونشره فى العالمين. إن ذلك يفرض على المسلمين ـ كبشر يريدون حق الحرّية والحياة ـ أن يكونوا صفا واحدا يشد بعضه بعضا كالبنيان المرصوص .

وأما إنّه سـنة كونيـة :

فلما هو مشاهد فى هذا الوجود، أو هذا الكون من أن كلّ مجموعة متجانسة، تتعاون وتتآزر فيما بينها لتحقيق ماخلقت له، فها هى المجموعة الشمسية ، تتعاون لتوفير الضياء والدفء لسائر الكائنات الحيّة ، وها هى جماعة النحل تتعاون فى بناء بيوتها، وتنظيفها، وتوفير الحماية لها ، ثم تسرح لتمتص رحيق الأزهار، ولتخرجه فى النهاية عسلا مصفّى، فيه شفاء للناس، وقل مثل ذلك فى جماعة النمل، وباقى المخلوقات، الأمر الذى حدا بالشاعر أن يقول :

النمل تبنى قراها فى تماسكها والنحل تجنى رحيق الشهد أعوانا

وليس الإنسان بدعا من هذه المخلوقات ، وإنما هو واحد منها ، تقوم حياته ـ بضرورياتها ، وكمالياتها ـ على معنى التعاون، والتآزر.

الناس للناس منْ بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وإذا كان هذا شأن الإنسان فى شئون الحياة الدنيا، وهى فانية، فأولى أن يكون كذلك فى شئون الآخرة الباقية ، والتى إليها معاده ، وفيها سعادته وشقاؤه ، ونجاته وهلاكه.

وهكذا يظهر مما قدمنا أن لزوم الجماعة أمر حتمى ، حتمية الصلاة ، والزكاة، والصيام، والحج، يأثم منْ تركه بغير عذر، ويعظم إثمه، ويشتد جرمه حين يحارب الملتزمين به، يناصبهم العداوة والبغضاء .

يقول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى :

« والمراد بالميتة الجاهلية ـ وهى بكسر الميم ـ حالة الموت، كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنّه يموت كافرا بل يموت عاصيا ، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه : أنه يموت مثل موت الجاهلى ، وإن لم يكن هو جاهليا، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير، وظاهره غير مراد، ويؤيده أن المراد بالجاهلية التشبيه، قوله فى الحديث الآخر : « منْ فارق الجماعة شبرا، فكأنما خلع ربقة الإسلام منْ عنقه »(١) .

رابعا : شبهات حول لزوم الجماعة ، ومناقشة هذه الشبهات :

وقد يحلو لبعض القاعدين أو الخائفين من لزوم الجماعة، وما يجرُّه عليهم هذا اللزوم من مشقات ومتاعب ، أن يبرروا قعودهم أو خوفهم هذا بإثارة بعض الشبهات، ودونك هذه الشبهات ومناقشتها والرد عليها :

الشبهة الأولى :

أن لزوم الجماعة يلغى ذاتية المسلم ، ويؤثر على شخصيته ، فتنعدم مسئوليته الفردية، ويبقى إمّعة إن أحسن الناس أحسن، وإن أساءوا أساء.

وللردّ على هذه الشبهة نقول : إن منهج الإسلام يقوم على دعوة الفرد أن يعيش فى كنف الجماعة، ويستظل بظلها، فى الوقت الذى يؤكد له أنّه مسئول مسئولية كاملة عن كلّ تصرف يقع منه، فيقول سبحانه : ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [فاطر : ١٨] ، ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)**﴾ [المدثر] ، ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا** ﴾ [البقرة:٤٨، ١٢٣]، ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)** ﴾ [القيامة]، ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** ﴾ [فاطر : ١٨].

---

(١) انظر : فتح البارى لابن حجر ١٣ / ٧ .

وأن عليه أن يبذل النصيحة بشروطها وآدابها، لكل واحد فى الجماعة مهما علا كعبه، ومهما عظمت مكانته، فيقول ﷺ : « الدين النصيحة »، قلنا : لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» (١) ، « المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » (٢) ، وفى رواية : « المؤمن مرآة أخيه، إن رأى فيه عيبا قوّمه » (٣) .

ولقد عاش الصحابة مع النبى ﷺ وعاش المسلمون الأولون بعضهم مع بعض، فما رأينا فردا ذابت شخصيته ، أو تلاشتْ فرديته فى الجماعة ، وإنما رأينا النصيحة، والشورى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما قول بعضهم لعمر : « لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا » عنّا ببعيد .

وبهذا المنهج ينشأ ويبنى فى نفس المسلم كيان داخلى متميز، واضح المعالم والحدود، وتبقى أعصابه صاحية منتبهة لكل ما يمسه، ولو من بعيد .

الشبهة الثانية .

أن النصوص الشرعية جاءت مادحة للعزلة ، مرغبة فيها ، حاضة عليها ، إذ يقول ﷺ : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن » (٤) ، «من خير معاش الناس لهم: رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغى القتل والموت مظانّه، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة منْ هذه الشعف، أو بطن واد منْ هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربَّه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير » (٥) ، « إن الله يحب التقى، الغنىّ، الخفىّ . . . » (٦) ، « أمسك عليك

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب النصيحة ٤/ ٢٨٦ رقم (٤٩٤٤) من حديث تميم الدارىّ ﷺ مرفوعا بنحوه .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى :السنن : كتاب الأدب: باب فى النصيحة والحياطة ٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٨) من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا .

(٣) هذه الرواية أخرجها البخارى فى : الأدب المفرد: باب المسلم مرآة أخيه ص ١٠٧ رقم (٢٣٨) من حديث أبى هريرة ﷺ موقوفا عليه ، ومرفوعا إلى النبى ﷺ باللفظ الوارد عند أبى داود كما تقدم .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان: باب من الدين الفرار من الفتن ١/ ١١ ، وكتاب الفتن: باب التعرب فى الفتنة ٩/ ٦٦ ، من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة : باب فضل الجهاد والرباط ٣/ ١٥٠٣، ١٥٠٤ رقم (١٢٥)، من حديث أبى هريرة مرفوعا بهذا اللفظ .

(٦) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ٤ / ٢٢٧٧ رقم (١١) ، من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا بهذا اللفظ .

لسانك ، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك »[١]، « . . . فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك »[٢].

وللردّ على هذه الشبهة نقول : إنه كما جاءت النصوص الشرعية مادحةً العزلة، مرغبة فيها، حاضّةً عليها ، فقد جاءتْ نصوص شرعية أخرى داعية إلى السير تحت لواء الجماعة، والعيش فى كنفها ، كقوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴿٤﴾ ﴾ [الصف].

وكقوله ﷺ : « . . . عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، منْ أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة »[٣]، « يد الله مع الجماعة »[٤] ، « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، فإن منْ خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلى أن يرجع » قالوا : يارسول الله ،وإن صلّى، وصام ؟ قال : « وإن صام ، وصلى ، وزعم أنه مسلم »[٥].

والجمع بين هذه النصوص يقتضى أن يلزم المسلم الجماعة بادئ ذى بدء ، ولا يلجأ إلى العزلة أو التفرد إلا حين يستعصى عليه العلاج ، ويخشى على نفسه الفتنة، وضياع الدين .

وعلى مثل هذا الفهم يحمل قول ابن مسعود رضي الله عنه : خالط الناس ، ودينك لا تكلمنّه[٦] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي فى : السنن : كتاب الزهد : باب ماجاء فى حفظ اللسان ٤ / ٥٢٣ رقم (٢٤٠٦) من حديث عقبة بن عامر قال : قلتُ : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أمسك عليك لسانك . . . » الحديث ، وعقب عليه قائلا : « هذا حديث حسن » ، وأحمد فى : المسند ٤ / ١٤٨ ، ١٥٨، ٥ / ٢٥٩ من حديث عقبة بن عامر مرفوعا .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٣) الحديث سبق تخريجه ص ١٣ .

(٤) الحديث سبق تخريجه ص١٧ .

(٥) الحديث سيأتى تخريجه بإذن الله تعالى فى شرح الحديث الثالث والعشرين .

(٦) الأثر أخرجه البخارى [معلقا] فى : الصحيح : كتاب الأدب: باب الانبساط إلى الناس ١ / ٥٢٦ بهذا اللفظ موقوفًا على ابن مسعود ، وحاول ابن حجر وصله فى فتح البارى ١٠ / ٥٢٦ فقال : « وهذا الأثر وصله الطبرانى فى الكبير من طريق عبد الله بن باباه ، عن ابن مسعود قال : خالطوا الناس ، وصافوهم بما يشتهون ، ودينكم لا تكلمنه ، وأخرجه ابن المبارك فى: كتاب البر والصلة من وجه آخر، عن ابن مسعود بلفظ : خالقوا الناس ، وزايلوهم فى الأعمال، وعن عمر مثله، لكن قال : انظروا ألا تكلموا دينكم » .

وقول إبراهيم عليه السلام لقومه ـ كما حكى القرآن الكريم : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم: ٤٨] . وصنيع أبى ذرّ، وعبد الله بن عمر، وغيرهما من الصحابة، والتابعين حين اعتزلوا جماعة المسلمين، وعاشوا وحدهم لما وقعت الفتنة، صيانة لأيديهم، وألسنتهم، وقلوبهم أن تغمس فى دماء زاكية ، طهرها الله عز وجل ، ولا يعرف من المصيب، ومنْ غير المصيب .

الشبهة الثالثة :

أن الجماعة تشغل المسلم عن صرف الأوقات فى العبادة من قراءة قرآن، وذكر، ودعاء، واستغفار، ومحاسبة، وزيارة قبور، واعتكاف . . . إلخ، وهذه ضرورة لتطهير النفس ، وتزكيتها .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن العبادة فى الإسلام ليست مقصورة على مجرد الشعائر التعبدية، بل هى كما يعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية: « اسم أو كلمة جامعة لكل مايحبّه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة »(١) .

وعليه ، فحضور المسلم مجالس العلم مفيدا ، أو مستفيدا عبادة ، وعيادة المريض وتشييع الجنائز عبادة، وزيارة الإخوان تأكيدا لمودّتهم، أو تهنئة بنعمة، أو تعزية فى مصيبة عبادة ، وإرشاد الناس إلى الخير، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر عبادة، ومد يد المعاونة للآخرين، ومساعدتهم فى سدّ حاجتهم وتقوية شوكتهم عبادة . . . وهلم جرا .

وعلى أن لزوم الجماعة لايمنع أن تكون للمسلم أوقات يخلو فيها بنفسه ليؤدى واجبا، أو يتقرب إلى الله بنفل، أو يحفظ علما، أو يحقّق مسألة أو يذكر، أو يتفكر، أو يحاسب نفسه ، وذلك معنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خذوا حظكم من العزلة(٢).

الشبهة الرابعة :

أن الشر أصبح فى هذا العصر مستطيرا، والفساد صار منتشرا، بحيث بات من

---

(١) انظر : رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٨ بتصرف يسير .

(٢) الأثر أخرجه عبد الله بن المبارك فى : الرقائق ص ٣ من حديث شعبة ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن عمر بن الخطاب موقوفا عليه بهذا اللفظ .

الصعب على المسلم أن يسلم فى دم ، أو مال ، أو عرضٍ، كأن الجماعة إذن تكاليف وتبعات.

وللردّ على هذه الشبهة نقول : إنه على الرغم من استطارة الشر وانتشار الفساد فى هذا العصر، فإن الناس لازالوا بخير، ولازالتْ فيهم سلامة فطرة، وسرعة استجابة، غاية ما فى الأمر أنه لكثرة صوارف الحياة ، والدعايات الكاذبة اعترى الناس شىء من الغفلة والإعراض ، ويمكن القضاء على ذلك بقليل من البذل مع الإخلاص والصدق ، وشىء من التحمّل .

على أنّ الصدق فى أداء الأمانة، والخروج من التكاليف التى كلّفنا الله عزّ وجل بها، لا يكون إلا بمخالطة الناس، والعمل معهم، ثم الصبر على أذاهم ويصدق ذلك قوله ﷺ : « الذى يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرا من الذى لايخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم » (١).

خامسا : أهم صفات الجماعة الجديرة بالاتباع واللزوم :

وللجماعة المسلمة الجديرة بالاتباع واللزوم صفات ، نذكر منها :

١ ـ إفراد الله عزوجلّ بالألوهية، والربوبية، والتشريع ، والسلطان ، قال تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه** ﴾ [محمد : ١٩] ، ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)** ﴾ [آل عمران] .

وتتجلى هذه الصفة في سلوكيات، وأعمال يومية كثيرة، نوجز منها:

أ ـ قصده ـ سبحانه ـ والتوجه إليه وحده، بكل الأقوال والأعمال، منْ شعائر تعبدية، إلى نذر، إلى حلف، إلى استعانة، إلى استعاذة ، إلى توكل، إلى خوف، إلى رجاء . . . ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ** ﴾ [الأنعام] ، ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)** ﴾ [آل عمران]، « منْ حلف بغير الله فقد أشرك » (٢).

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤ / ٥٧٢ رقم (٢٥٠٧) ، وأحمد فى: المسند ٢ / ٤٣، ٥ / ٣٦٥ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الصبر على البلاء ٢ / ١٣٣٨ رقم (٤٠٣٢) ، كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا .

(٢) الحديث سيأتى تخريجه بإذن الله تعالى فى شرح الحديث الثالث والعشرين .

ب ـ وخلعُ، ونبذُ كلّ ولاء، إلا ولاء الله عزّ وجلّ ورسوله، والمؤمنين المستمسكين بهَدْى الله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) ﴾ [المائدة] ، ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] .

جـ ـ وفهم الإسلام فهما وسطا، دون غلو أو تشدُّد، ودون تفريط أو إسراف، ثم العمل به كله من : لا إله إلا الله، إلى إماطة الأذى عن الطريق، منْ منطلق أنه شرع الله وأنه نظام ومنهاج يشمل الحياة جميعا على اختلاف البيئات وفى كلّ العصور ، إنْ فى الحكم، وإنْ فى المال، وإنْ فى الاجتماع، وإنْ فى التربية والتعليم ، وإنْ فى الجهاد ، كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة سواء بسواء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، أى فى الإسلام كله، « إنه لايقوم بدين الله، إلاّ من حاطه من جميع جوانبه » [(١)].

د ـ والتركيز على الجانب العملى أكثر من الجانب النظرى، منْ منطلق أن دين الله نزل ليعمل به، وليكون نورا هاديا فى الأرض، لا أن يتحوّل إلى ترف فكرى، أو معرفة ذهنية باردة، مشوبة بالجدل ،والمراء : كنّا إذا حفظنا عشر آيات من القرآن لم نتجاوزها، حتى نعلم ما فيها من العلم ، والعمل ، قالوا: فتعلمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعا [(٢)] ، و « ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل » [(٣)] .

هـ ـ والاستعلاء على كل ماتعارفت عليه المناهج الأرضية من قيم وعادات ، وتقاليد وأنظمة، مادامت تخالف المنهج الإلهى ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، [المائدة: ٥٤]، ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾

[آل عمران]

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ١ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٢) الحديث أورده شيخ الإسلام ابن تيمية فى: مقدمة فى أصول التفسير : فصل فى أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن ص ٣٥، ٣٦، ط دار القرآن الكريم، الكويت، الأولى ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب التفسير ، تفسير سورة الزخرف : باب منه ٥ / ٣٥٣ رقم (٣٢٥٣) ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب اجتناب البدع ، والجدل ١ / ١٩ رقم (٤٨) ، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٥٢، ٢٥٦، كلهم من حديث حجاج بن دينار، عن أبى غالب، عن أبى أمامة مرفوعا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، إنما نعرفه من حديث حجاج ابن دينار، وحجاج ثقة مقارب الحديث » .

٢ ـ سلوك نفس الطريق التى سار فيها رسول الله ﷺ لتحرير النفس البشرية، وإقامة حكم الله فى الأرض ، إذ هو ﷺ الأسوة والقدوة لنا مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب] .

ومظاهر هذا السلوك كثيرة متنوعة، ونذكر منها :

أ ـ العمل على إيجاد الشخصية المسلمة الجامعة لكل خصال الخير، المتأبية على كلّ خصال الشر، المستأهلة لعون الله ، وتأييده ، ونصره : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر] . ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر] ، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣]، «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلّ خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز . . .»(١) .

ب ـ والتوسع فى إيجاد هذه الشخصية بحيث تنتشرُ، وتعمّ المجتمع كلّه، حواضره وبواديه، أحياءه ونجوعه، قصوره وخيامه، شوارعه ودروبه وحاراته، رجاله ونساءه، صغاره وشبابه، شيوخه وكهولهُ . . .

جـ ـ والربط بين هذه الشخصيات، بحيث تصدر عن رأى واحد، وتصير فكرا واحدا، وقلبا واحدا، وروحا واحدا، ومشاعر واحدة وإن تعددت منها الأجساد، فتصبح قادرة على نشر منهج الله فى الأرض، وحمايته من كيد الكائدين، وعبث العابثين: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف] ، ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ [محمد] .

د ـ والتخطيط الواعى الدقيق، المبنى على دراسة وفهم الواقع باستمرار، ثم التعامل معه، بناء على هذه الدراسة، وعلى هذا الفهم، وبناء على ما يهدى ويرشد إليه منهج الله : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾ [التوبة] ، ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) ﴾ [هود] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول ص ٧ .

هـ ـ ورعاية بعض الأولويات فى العمل ، على معنى أن تقدم بعض الأصول على بعض، وتقدم الأصول على الفروع ، والفرائض على النوافل، والمجمع عليه على المختلف فيه، عند التزاحم، وضيق الأوقات.

وفى السيرة النبوية نماذج كثيرة، تشرح ذلك ،وتفسّره مثل: تقديم النبىﷺ تحطيم الأصنام الموجودة بداخل النفس البشرية، على تحطيم الأصنام التى كانتْ موجودة على سطح الكعبة، وفى جوفها .

و ـ وعدم التساهل ، أو التهاون فى الأصول المجمع عليها مع الإعذار فى الفروع المختلف فيها ، فإن كلّ واحد من الخلق يؤخذ منه ويرد عليه ، إلا المعصوم محمدﷺ .

ز ـ وسدُّ الباب فى وجه التساؤلات ، والشكوك ، والجدل ، والفراغ ، ونحو ذلك من الأمور التى يمكن أن تأكل الجماعة وتفتتها ، باتباع منهاج أو برنامج واضح الأركان محدّد المعالم ، يأخذ بيد الفرد منْ طور إلى طور، ومنْ مرحلة إلى مرحلة، فيشبع تطلعاته، ويجيب على تساؤلاته، ويرفع من مستواه.

ح ـ والصبر على مشاقّ ومتاعب الطريق ، والثبات فى وجه المحن والشدائد ، والصمود أمام الإرهاب ، والاستعلاء على الفتنة ، إذ أن الابتلاء سنة من سنن الله فى الجماعات ، لابد منها لتتضح الرؤية ، وتبرز معالم الطريق : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) ﴾ [المزمل]، ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت] ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(١٤٢) ﴾ [آل عمران] ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤]، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد] .

وسئل الشافعى رضي الله عنه : أيهما أفضل للرجل: أن يُمكَّن له أو يبتلى ؟ فقال: لا يُمكَّن له حتى يبتلى .

ط ـ والتأنى ، والتريث ، أو التروّى ، وعدم الاستعجال ، ذلك أن الباطل لم يفرض سلطانه فى يوم وليلة ، وإنما احتاج إلى زمن طويل يخطط ، وينفذ ، ويتابع ؛ لذا لا ينتظر أن يتم البناء فى يوم وليلة ، وإنما لابد من وقت كافٍ ، وزمن طويل ، لاسيما والبناء أشق وأصعب بكثير من الهدم .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال لخباب بن الأرت ـ وقد جاءه شاكيا ، باكيا ، راجيا أن يلتمس لهم النصرة من الله : « . . . والذى نفس محمد بيده ، ليتمن الله ـ تعالى ـ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، ما يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون . . . » (١) .

٣ ـ وأن يكون معها من يوجهها ، ويرشدها ، بحيث يرتب العمل ، وتوضع الأمور فى نصابها ، ولهذا الشرط سلوكيات ، ومظاهر تدل عليه ، منها :

أ ـ أن ينزل جميع أبنائها على رأى من يوجههم ، مادام فى المعروف .

ب ـ وأن يكون هناك التناصح بشروطه وآدابه ، وقبول هذا التناصح والرضا به .

جـ ـ وأن تكون هناك الدقة والأمانة فى اختيار العاملين ؛ كي يقطع الطريق على المتربصين والمتآمرين : ﴿ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ﴾ [النساء : ١٠٢] .

د ـ وأن يكون هناك الاتباع لا الابتداع : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾ [الكهف] .

هـ ـ وأن تكون هناك الطاعة فى المعروف ، إذ جاء فى الحديث : « السمع والطاعة على المرء المسلم ، فيما أحبّ وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة » (٢) ، « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمّر عليكم عبد حبشى ، كأنَّ رأسه زبيبة » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب علامات النبوة فى الإسلام ٤/ ٢٤٤، وكتاب مناقب الأنصار : باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥/ ٥٦، ٥٧ ، وكتاب الإكراه : باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٩/ ٢٥، ٢٦ من حديث خباب ﷺ مرفوعا .

(٢ ، ٣) سيأتى تخريجهما بإذن الله تعالى فى شرح الحديث الثالث والعشرين .

ما يستفاد من الحديث دعويا وتربويا :

ويستفاد من الحديث دعويا وتربويا ما يلى :

١ ـ لزوم الجماعة ، والعيش فى كنفها، أساليب ووسائل، أهدافا وغايات، ويعين المسلم على هذا الالتزام :

* أن يدرك الخير الذى يمكن أن يعود عليه من وراء لزوم الجماعة على النحو الذى شرحناه آنفا .

* وأن يعلم أن ذلك أمر الله ورسوله، وما على المسلم الصادق فى إسلامه إلا أن يمتثل هذا الأمر، دون شك أو تردد ، يقول تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** (٣٦) ﴾ [الأحزاب] .

* وأن يفهم أنّه كذلك ضرورة بشرية، وسنة كونية لا تستقيم الحياة ، ولا تسعد إلا به .

* وأن يتذكر أنه الطريق لحفظ هيبته، وحرمته، ووقاره.

٢ـ ضرورة التركيز على المعانى المجازية فى النواحى الدعوية والتربوية؛ نظرا لأنها تبرز المعنى المعقول فى صورة المحسوس، فيثبت فى النفس ولا ينسى.

٣ـ أن الانحراف عن الجماعة ، ولو بمقدار قيد شبر يعرض صاحبه لعقاب الله الشديد، الذى قد يصل أحيانا إلى أن يكون صورة منْ صور الجاهلية .

الحديث الثانى والعشرون

قال رسول الله ﷺ:

« ثلاثة لا تسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا ، وأمة أو عبد أبق فمات ، وامرأة غاب زوجها قد كفاها مؤنة الدنيا ، فتبرجت بعده، فلا تسأل عنهم » .

تخريجه :

الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٦/ ١٩ ، واللفظ له، والبخارى فى : الأدب المفرد ص ٢٥٦، ٢٥٧، والحاكم فى : المستدرك: كتاب العلم : باب من فارق الجماعة واستذل الإمارة لقى الله ولا حجّة له عند الله ١/ ١١٩، كلهم من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه مرفوعا به، بيد أن أحمد والبخارى زادا : « وثلاثة لاتسأل عنهم : رجل نازع الله ـ عزّ وجل ـ رداءه، فإن رداءه الكبرياء وإزاره العزة، ورجل شكّ فى أمر الله، والقنوط من رحمة الله » ، وعقب الحاكم على روايته قائلا : « صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بجميع رواته، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علّة »، وأقره الذهبى على ذلك فى : التلخيص .

وأورده السيوطى فى : جامع الأحاديث (جمع الجوامع) ٣/ ٦٨٥ رقم (١٠٨٤٥)، والجامع الصغير ٣/ ٣٢٤ ، ٣٢٥ رقم (٣٥٢١) ، ورمز له بالرموز التالية: « خد، ع، طب، ك ، هب » يعنى : أخرجه البخارى فى: الأدب المفرد، وأبو يعلى الموصلى فى: المسند ، والطبرانى فى: المعجم الكبير ، والحاكم فى : المستدرك ، والبيهقى فى : شعب الإيمان، من حديث : فضالة بن عبيد ، « صحـ » أى : صحيح .

وأورده الألبانى فى : سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٧١ ، ٧٢، رقم (٥٤٢) ، وعزاه إلى: البخارى فى : الأدب المفرد، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وابن أبى عاصم فى : السنة، وابن عساكر فى : مدح التواضع وذم الكبر، وعقب على هذا بقوله: «وقد وهما ـ يعنى الحاكم، والذهبى ـ فى بعض ما قالا، فإن أبا على الجنبى لم يخرج له الشيخان فى : صحيحيهما، وأبو هانئ ، واسمه حميد بن هانئ لم يخرج

له البخارى ، وقال ابن عساكر: حديث حسن غريب ، وتفرّد به أبو هانئ، ورجال إسناده ثقات » .

معناه :

يمكّن الإسلام لنفسه فى هذه الأرض على أساس من قوّة الجماعة التى تحمله، وتتحرك به بين الناس ، ويرى أن قوة الجماعة تعود إلى عوامل شتى ، وأمور كثيرة، أهمها ومنبعها : النظام القائم على التعاون والإتقان ، بأن يكون لكل فرد فيها عمل، وأن يكون هذا العمل متناسبا مع قدراته ومواهبه ، وأن يبذل كل واحد أقصى ما فى وسعه ، وكل ما فى طاقته بغية إجادة وإحسان هذا العمل ، سواء أكان ذلك على مستوى الدولة ، أم على مستوى المجتمع ، أم على مستوى الأسرة.

فعلى مستوى الدولة : يجب أن يتفرّغ الإمام أو الأمير لسياسة دنيا الناس بدين الله ـ عزّ وجلّ ، ويعينه الرعيّة بتنفيذ كل ما يكلفهم به، ما دام فى المعروف، وما دام فى حدود الوسع والطاقة.

وعلى مستوى المجتمع : ينبغى أن يتفرغ الوجهاء أو ذوو الرأى لإنجاز المهام المنوطة بهم، والتى يعود خيرها إلى الجماعة أولا، وقبل كلّ شىء ، ويكفيهم الخدم أو العمال مؤنة السعى بأنفسهم لإنجاز حاجاتهم الأسرية أو العائلية .

وعلى مستوى الأسرة : ينبغى أن يسعى الرجل ويكدح لتحقيق الكفاية لنفسه، ولأهله ، ولولده ، ولذويه ، وتحقّق له المرأة السكن والمودة بلزومها داره لإعانته فى خاصّة نفسه ، وتربية ولده ، حتى يكون هناك من يحمل الرسالة ، ويؤدى الأمانة فى المستقبل. كل هؤلاء يؤدّون واجبهم مع النصح ، وجهد النفس ، وتقوى الله ، فَتَقْوَى الجماعة، ويمكّن لدين الله .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيان مضمونه الآن، إنّما هو حضّ وتحريض لثلاثة نفر أو لثلاثة أصناف من الأمة ، أن يلتزموا بهذا العامل، أعنى: النظام القائم على التعاون والإتقان، وألا يفرطوا فيه أو يضيعوه قيد أنملة، أو مقدار شعرة، بل وأن يثبتوا أو يستمرّوا على ذلك حتى يأتيهم أمر الله .

أمّا الصنف الأول (وهم الجند أو الرعيّة فى الأمة) : فواجبهم لزوم الجماعة، المتمثّل فى طاعة أميرها فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، والشدة والرخاء، وإلى آخر الزمان، مادامت هذه الطاعة فى المعروف، ولئن أغراهم شياطين الإنس والجن، وسولّت

لهم نفوسهم مفارقة الجماعة، تلك التى تتمثّل فى شقّ عصا الطاعة، والخروج على الإمام، ومناصبته العداء من غير كفر بواح عندهم من الله فيه برهان، واستجابوا لذلك، وظلّوا هكذا حتى الموت ، فإن مصيرهم إلى النّار، وبئس القرار .

وأمّا الصنف الثانى (وهم الخدم أو العمال) : فواجبهم القيام بحقّ مخدوميهم عليهم والتفانى فى أداء هذا الحق، وعدم التخلّى عنه ساعة من نهار، ولئن زيّن لهم شياطين الإنس والجن، وطوعت لهم أنفسهم أن يفرّوا من الميدان، وأن يشردوا عن أداء الواجب دون مبرر شرعى مقبول، واستجابوا لذلك، وظلوا على هذه الحال حتى الموت، فإن مأواهم النار، هى مولاهم، وبئس المصير .

وأما الصنف الثالث (وهم النّساء) : فواجبهن لزوم دار الزوج، لإعانته على أمره فى نفسه، ومع ولده، ما دام قد هيأ سبيل العيش، وكفى مؤنة التبرّج أو الخروج، ولئن أغواهن شياطين الإنس والجن، وأملت عليهن أهواؤهنّ التخلى عن أداء الأمانة وتضييع الرسالة، بالتبرّج وترك دار الزوج بلا مبرر شرعى مقبول، واستجبن لذلك، فسيصلين عذاب السعير .

أجل ، لقد حضّ النبى ﷺ وحرض كلّ واحد من هذا النفر، أو من هذه الأصناف الثلاثة، على أداء دوره، والقيام بواجبه دون تفريط أو تضييع، سالكا سبل التخويف والزجر، تلك التى تتمثل فى دخول النار، بل وحجب أىّ من الناس : أن يسأل عنهم، أو أن يتعرف أخبارهم، فيتوسّط لهم، أو يشفع فيهم، فقال: « ثلاثة لا تسأل عنهم » وكررها فى البدء والختام ، تأكيدا للأمر، علّ النفوس تصفو، والقلوب ترقّ، والأفئدة تعى، فتتحرك الجوارح، ويكون الالتزام، والالتزام الدقيق .

وحتى تبرز معالم وأبعاد الحديث بصورة أوضح، فإننا سنعرض للجوانب التالية:

الجانب الأول : بعض النصوص الأخرى الواردة فى ذم معصية الإمام، والآثار المترتبة على هذه المعصية .

الجانب الثانى : بعض النصوص الأخرى الواردة فى ذم إباق أو هرب الخدم ، والآثار المترتبة على هذا الإباق أو هذا الهرب.

الجانب الثالث : مفهوم التبرج وآثاره، وبعض النصوص الأخرى الواردة فى ذمه والتحذير من وقوعه فى المجتمع .

ودونك البيان :

أولا : بعض النصوص الأخرى الواردة فى ذم معصية الإمام ، والآثار المترتبة على هذه المعصية :

وردت نصوص أخرى غير حديث الباب ، تتضمن ذمّ معصية الإمام وتحذر من ذلك أشد التحذير ، من هذه النصوص:

قوله ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن يعصنى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصانى » (١) ، « من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية » (٢) ، « من فارق الجماعة، واستذل الإمارة ، لقى الله ولا وجه له عنده » (٣) ، « من خلع يدًا من طاعة ، لقى الله يوم القيامة ،ولا حجة له» (٤) ، « الغزو غزوان ، فأمّا من ابتغى وجه الله ،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الجهاد : باب يقاتل من وراء الإمام ، ويتقى به ٤/ ٦٠، ٦١، وكتاب الأحكام : باب قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم ﴾ ٩/ ٧٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ٣/ ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ رقم (٣٢ ـ ٣٤)، والنسائى فى: السنن : كتاب البيعة : باب الترغيب فى طاعة الإمام ٧/ ١٥٤ ، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة : باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ١/ ٤ رقم (٣) مع الاقتصار على الجزء الأول منه، وقد وهم فيه الشيخ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى حين قال: « هذا الحديث مما تفرد به المصنف»؛ نظرا لمشاركة كثير من الأئمة له فى إخراجه كما ترى، وكتاب الجهاد : باب طاعة الإمام ٢/ ٩٥٤ رقم (٢٨٥٩)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٠ ، ٣٤٢ ، ٤١٦ ، ٤٦٧، ٤٧١ ، ٥١١، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وبمثله، وبنحوه، وبزيادات فى بعض طرقه ، واللفظ لمسلم.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ٣/ ١٤٧٦ رقم (٥٣)، والبيهقى فى : السنن الكبرى : كتاب قتال أهل البغى: باب الترغيب فى لزوم الجماعة، والتشديد على نزع يده من الطاعة ٨/ ١٥٦، وعزاه إلى مسلم من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وزيادة : « ومن قاتل تحت راية عميّة يغضب لعُصبة أو يدعو لعُصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتى يضرب برّها وفاجرها ،لايتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٣٧٨ ، ٤٠٦ من حديث حذيفة ﷺ مرفوعا به، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب لزوم الجماعة ٥ / ٢٢٢ ، وعقّب عليه قائلا : « رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٤) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة الجماعة المسلمة ٣/ ١٤٧٨ رقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا، وتمامه: « ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »، وأحمد فى : المسند ٣/ ٤٤٦ من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه مرفوعا بنحوه.

وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك واجتنب الفساد فإن نومه ونبهته أجر كله، وأما من غزا فخراً و رياء وسمعة ، وعصى الإمام ، وأفسد فى الأرض فإنه لايرجع بالكفاف» [١]. وغير هذا كثير.

وإنما حذر الإسلام من مثل هذه المعصية، أو الإصرار عليها ؛ لأن لها آثارا خطيرة وعواقب وخيمة، وأهمها وأعظمها : وقوع الأمّة فريسة بين أنياب أعدائها ؛ نظراً لأن هذه المعصية تجرّئ على محاكاتها من الآخرين والنسج على منوالها، فيفقد الإمام هيبته، وتزول منزلته من الصدور ، وتكون الفرقة والتمزق ، وحينئذ تفسح الطريق أمام الأعداء، فيسيطروا ويسودوا ، ويحولوا دون إقامة منهج الله فى الأرض، وقد ألمح النبى ﷺ إلى هذا الأثر فى الحديث المذكور آنفا : « من فارق الجماعة، واستذل الإمارة، لقى الله ولاوجه له عنده » ، وصرّح به علىّ ﷺ إذ يقول رجل : كنت عريفا فى زمن علىّ فأمرنا بأمر ، فقال: أفعلتم ما أمرتكم ؟ قلنا : لا، قال : والله لتفعلن ما تؤمرون به ، أو لتركبن أعناقكم اليهود والنصارى [٢] ، ويقول كذلك فى وضوح لالبس معه ، وبيان لا تأويل فيه: إنى لا أرى هؤلاء القوم إلا ظاهرين بتفرقكم عن حقكم، واجتماعهم على باطلهم [٣].

كما صرح به حذيفة ﷺ إذ قال : لا يمشين رجل منكم شبرا إلى ذى سلطان ليذلّه، فلا والله لايزال قوم أذلّوا السلطان أذلاء إلى يوم القيامة [٤].

---

(١) الحديث اخرجه أبو داود فى : السنن: كتاب الجهاد : باب فيمن يغزو يلتمس الدنيا ٣/ ١٣ ، ١٤ رقم (٢٥١٥)، والنسائى فى : السنن : كتاب الجهاد: باب فضل الصدقة فى سبيل الله عز وجل ٦/ ٤٨ ـ ٥٠، وكتاب البيعة : باب التشديد فى عصيان الإمام ٧/ ١٥٥، والدارمى فى : السنن : كتاب الجهاد: باب الغزو غزوان ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٣٤، والحاكم فى: المستدرك : كتاب الجهاد: باب من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام ٢/ ٨٥ ، كلهم من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعا به وبنحوه، وعقب الحاكم على روايته قائلا: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » وأقرّه الذهبى على ذلك فى : التلخيص .

(٢) الأثر أخرجه ابن أبى شيبة فى: المصنّف : كتاب الفتن ١٥/ ٥٧ رقم (١٩١٠٣) من حديث الأعمش ، عن شهر ، عن رجل موقوفا على علىّ ﷺ به، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى: كنز العمال ٥/ ٧٨٠ رقم (١٤٣٦٧) .

(٣) الأثر أخرجه ابن أبى شيبة فى : المصنّف : كتاب الفتن ١٥/ ٥٦ رقم (١٩١٠١) من حديث عبد الله بن المخارق بن سليم عن أبيه موقوفا على علىّ ﷺ به، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى : كنز العمال ٥/ ٧٨٠ رقم (١٤٣٦٨) .

(٤) الأثر أخرجه ابن أبى شيبة فى : المصنّف: كتاب الفتن ١٥/ ١٢٦ رقم (١٩٢٩٤) من حديث زياد بن علاقة، عن قطبة بن مالك موقوفا على حذيفة بن اليمان به ، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى : كنز العمال ٥/ ٧٨١ رقم (١٤٣٧١) .

بيد أن كلّ ما ورد من النصوص فى ذم معصية الإمام ، والوعيد عليها ، إنما هو محمول على ما إذا كان الإمام يقيم شرع الله فى الأرض، ولم يظهر منه الكفر البواح الذى عندنا من الله فيه برهان ، أما إذا كان الإمام عاريا من ذلك ، وكانت المعصية، وكان الإنكار الذى تؤمن معه الفتنة ، وتصان به الدماء ، فلا ذمّ ولا وعيد ، إذ يقول النبى ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمِر بمعصية فلا سمع ولاطاعة » (١) ، « لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف » (٢) .

ويقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا : أن بايعنا على السّمع والطاعة ، فى منشطنا ، ومكرهنا وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله . قال : « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » (٣) .

ويلخص الإمام النووى ـ رحمه الله ـ مضمون الحديث الأخير قائلا : معنى

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب السمع والطاعة للإمام ٤/ ٦٠، وكتاب الأحكام: باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٩ /٧٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية، وتحريمها فى المعصية ٣ / ١٤٦٩ رقم ٣٨ (١٨٣٩)، وأبو داود فى: السنن : كتاب الجهاد : باب فى الطاعة ٣ / ٤٠ ، ٤١ رقم (٢٦٢٦) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الجهاد: باب ماجاء لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ٤ /١٨٢ رقم (١٧٠٧)، وعقب عليه بقوله: « وفى الباب عن علىّ ، وعمران بن حصين ، والحكم بن عمرو الغفارى ، وهذا حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى : السنن : كتاب البيعة: باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع ٧/ ١٦٠، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الجهاد: باب لاطاعة فى معصية الله ٢/ ٩٥٦ رقم (٢٨٦٤) ، وأحمد فى: المسند ٢/ ١٧، كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الأحكام: باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٩/ ٧٨، ٧٩، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ٣/ ١٤٦٩ رقم (٣٩ ، ٤٠) ، والنسائى فى : السنن: كتاب البيعة: باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع ٧/ ١٥٩، ١٦٠، كلهم من حديث علىّ رضي الله عنه مرفوعا به ، وبنحوه، وسببه كما جاء فى إحدى روايتى مسلم: أن رسول الله ﷺ بعث جيشا، وأمّر عليهم رجلا فأوقد نارا وقال: ادخلوها، فأراد الناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة » ، وقال للآخرين قولا حسنا ، وقال : « لاطاعة فى معصية الله . . . » الحديث.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ٣/ ١٤٧٠، ١٤٧١ من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا به، وعنه نقل البيهقى فى : السنن: كتاب قتال أهل البغى : باب السمع والطاعة ٨/ ١٥٥ .

الحديث : لا تنازعوا ولاة الأمور فى ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم (١) .

ويؤكد الحافظ ابن حجر على ذلك قائلا : وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب ، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه ، لما فى ذلك من حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح ، فلا تجوز طاعته فى ذلك ، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها ، كما فى الحديث (٢).

ثانيا : بعض النصوص الأخرى الواردة فى ذمّ إباق أو هرب الخادم ، والآثار المترتبة على هذا الإباق أو هذا الهرب :

وكما أنّ هناك نصوصا أخرى غير حديث الباب فى ذم معصية الإمام ، والوعيد عليها ، فكذلك هناك نصوص أخرى غير حديث الباب فى ذمّ إباق أو هرب الخادم من سيده ، والوعيد على ذلك، نذكر منها : قولهﷺ :

« أيّما عبد أبق فقد برئت منه الذّمة » (٣)، «إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة »(٤)، « ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة: السكران حتى يصحو ، والمرأة الساخط عليها زوجها ، والعبد الآبق حتى يرجع فيضع يده فى يد

---

(١) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج للإمام النووى ١٢/ ٢٢٩ .

(٢) انظر: فتح البارى لابن حجر العسقلانى ١٣/ ٧، وعنه نقل الشوكانى فى: نيل الأوطار ٧/ ١٩٨، ١٩٩ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب الإيمان: باب تسمية العبد الآبق كافرا ١/ ٨٣ رقم (١٢٣) وأحمد فى : المسند ٤/ ٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٥، وأبو بكر بن أبى شيبة فى : المصنف: كتاب الجهاد: باب ما قالوا فى العبيد يأبقون إلى أرض العدو ١٢/ ٢٩٩، كلهم من حديث جرير مرفوعا به، ومعنى « برئت منه الذمة» أى: لم تعد له ذمة، وقد نقل الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم عن الحافظ أبى عمرو بن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) تفسير الذمة فقال : « الذمة هنا يجوز أن تكون الذمة المفسرة بالذمام، وهى الحرمة، ويجوز أن يكون من قبيل ما جاء فى قوله : « له ذمة الله تعالى وذمة رسولهﷺ» ، أى : ضمانه وأمانته ورعايته » .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب الإيمان: باب تسمية العبد الآبق كافرا ١/ ٨٣ رقم (١٢٤)، والنسائى فى : السنن : كتاب تحريم الدّم : باب العبد يأبق إلى أرض الشرك ٧/ ١٠٢ ، كلاهما من حديث جرير بن عبد الله مرفوعا به .

مواليه» [١] ، « اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما : عبد أبق من مواليه حتى يرجع ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع » [٢] ، « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها ساخط عليها ، وإمام قوم وهم له كارهون » [٣] ، « أيّما عبد مات فى إباقته، دخل النار، وإن قتل فى سبيل الله » [٤]، وغير هذا كثير.

وإنما ذمّ الإسلام إباق أو هرب الخدم من سادتهم ؛ نظرا لما يؤدى إليه هذا الإباق أو هذا الهرب من شغل وجهاء الأمة، وذوى الرأى فيها بحاجياتهم الشخصية والأسرية عن واجباتهم العامة المنوطة بهم، والتى يعود خيرها إلى الجماعة أولا وقبل كل شىء، الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى ضعف الأمة، وطمع الأعداء فيها، بل ووقوعها فى قبضتهم. بيد أن ما ورد من نصوص فى هذا الشأن ، إنما هو محمول على ما إذا كان السيد يحسن معاملة خادمه ، ويترفق به: بأن يطعمه مما يطعم ، ويلبسه مما يلبس ، ولا يخيفه ولا يكلّفه ما لا يطيق، ولا يقبّح ولا يضرب الوجه، إلى غير ذلك من صور الرّفق، وحسن المعاملة ، أما إذا كان الأمر عكس ذلك ، وأبق الخادم أو هرب ، فلا يتناوله هذا الذم، وذلك الوعيد .

---

(١) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب البيوع وغيرها: باب ترهيب العبد من الإباق من سيده ٣/ ٢٨ عن جابر مرفوعا،وعزاه إلى الطبرانى قائلا: «رواه الطبرانى فى: الأوسط من رواية عبد الله ابن عقيل، واللفظ له، وابن خزيمة، وابن حبان فى: صحيحيهما، من رواية زهير بن محمد » .

(٢) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب البيوع وغيرها: باب ترهيب العبد من الإباق من سيده ٣/ ٢٨ عن ابن عمر مرفوعا، وعزاه إلى الطبرانى قائلا: «رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير بإسناد جيد، والحاكم » .

(٣) الحديث أورده الترمذى فى: السنن : كتاب الصلاة : باب ما جاء فيمن أمّ قوما هم له كارهون، ٢/ ١٩٣ ، ١٩٤ رقم (٣٦٠) من حديث أبى غالب عن أبى أمامة مرفوعا به، وعقّب عليه قائلا : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه »، وعلق الشيخ أحمد شاكر على تعقيب الترمذى هذا قائلا: « بل هو حديث صحيح، فإن أبا غالب ثقة، وثّقه موسى بن هارون الحمال، والدارقطنى، وغيرهما »، وفى التهذيب: « حسّن الترمذى بعض أحاديثه، وصحّح بعضها »، وقال الشارح (١/ ٢٨٧) : « وضعفه البيهقى، قال النووى فى الخلاصة: والأرجح هنا قول الترمذى ، وهذا الحديث مما انفرد به الترمذى فلم أجده فى غيره»، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب البيوع وغيرها : باب ترهيب العبد من الإباق من سيده ٣/ ٢٩ من حديث أبى أمامة مرفوعا، وعزاه إلى الترمذى قائلا: « رواه الترمذى ، وقال: حديث حسن غريب » .

(٤) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب: كتاب البيوع وغيرها : باب ترهيب العبد من الإباق من سيده ٣/ ٢٩ من حديث جابر مرفوعا، وعزاه إلى الطبرانى قائلا: «رواه الطبرانى فى الأوسط، من رواية عبد الله بن محمد بن عقيل، وبقية رجاله ثقات » .

إذ جاء أن غلمة لعبد الرحمن بن حاطب سرقوا بعيرا فانتحروه، فوجد عندهم جلده ، فرفع أمره إلى عمر ، فأمر بقطعهم ، فمكثوا ساعة ، وما نرى إلا قد فرغ من قطعهم، ثم قال عمر: عليّ بهم ، ثم قال لعبد الرحمن : والله إنّى لأراك تستعملهم ثم تجيعهم وتسىء إليهم، حتى لو وجدوا ماحرّم الله، عليهم حلّ لهم، ثم قال لصاحب البعير : كم كنت تعطى ببعيرك ؟ قال : أربعمائة ، قال لعبد الرحمن بن حاطب : قم فاغرم له ثمانمائة درهم[١].

فإذا كان عمر قد رأى لهم وجها فى نحر البعير وأكله؛ لجوعهم، وسوء معاملتهم، مع العمل الشاق، بل ألزم سيدهم بغرامة مضاعفة ثمنا للبعير، فإنّا نرى من باب أولى هربهم فرارا من الظلم، وسدّا للرمق، لا إثم عليه، ولا وعيد فيه، كيف، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء].

وقد نبّه لذلك الإمام المناوى ـ رحمه الله ـ فقال : « . . . إلا أن يكون إباقه لإضرار السّيد به، ولم يجد له ناصرا، كما قال بعض الأئمة »[٢]، أى فلا حرج ولا إثم عليه فى هذا الإباق، أو هذا الهرب .

ثالثا : حقيقة وآثار التبرّج، وبعض النصوص الأخرى الواردة فى ذمّه والتحذير من وجوده فى المجتمع :

وحقيقة التبرّج فى اللغة : التكشّف والظهور للعيون، ومنه قيل: سفينة بارج: أى مكشوفة لا غطاء عليها[٣]، أما التبرّج فى اللسان الشرعى فهو: قصد المرأة وتكلفها لإبراز ما يجب إخفاؤه من زينتها ومفاتنها أمام الرجال الأجانب،سواء أكان ذلك موضعا فى الجسم، أم حركة لعضو منه، أم طريقة فى الكلام أو المشى، أم حلية مما يتزين بها النساء أو يلبسنه، أم غير ذلك.

ولهذا التبرّج صور ومظاهر شاعت فى الجاهلية الأولى، وجاهلية هذا العصر.

فمما شاع منه فى الجاهلية الأولى الاختلاط بالرجال، والتكسر فى المشى والكلام، ولبس الخمار ونحوه على هيئة يبدو معها بعض محاسن البدن ومفاتنه[٤].

---

(١) الأثر أورده علاء الدين الهندى فى : كنز العمال ٩/١٩٨، ١٩٩ رقم (٢٥٦٥٣) من حديث يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه به، وعزاه إلى: عبد الرزاق فى: الجامع، والبيهقى فى : شعب الإيمان.

(٢) انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ٣/٣٢٣ .

(٣) انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى ٢/٢٣٥، والصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٦١، والمعجم الوسيط ١/٤٦، والحلال والحرام للدكتور القرضاوى ص ١٦٠.

(٤) انظر : الحلال والحرام للدكتور القرضاوى ص ١٦٠ بتصرف.

ومما شاع منه فى جاهلية هذا العصر: ما يصوّره الشيخ سيّد سابق فى كتابه: « فقه السنّة » إذ يقول :

« فأصبح من المعتاد أن يجد المسلم المرأة المسلمة، مبتذلة، عارضة مفاتنها خارجة عن زينتها، كاشفة عن صدرها ، ونحرها ، وظهرها ، وذراعها ، وساقها، ولا تجد أى غضاضة فى قص شعرها ، بل تجد من الضرورى وضع الأصباغ ، والمساحيق، والتطيب بالطيب ، واختيار الملابس المغرية ، وأصبح لموضات الأزياء مواسم خاصة يعرض فيها كل لون من ألوان الإغراء والإثارة .

وتجد المرأة من مفاخرها ، ومن مظاهر رقيّها ، أن ترتاد أماكن الفجور والفسق، والمراقص والملاهى ، والمسارح والسينما ، والملاعب والأندية والقهاوى ، وتبلغ منتهى هبوطها فى المصايف وعلى البلاج .

وأصبح من المألوف أن تعقد مسابقات الجمال، تبرز فيها المرأة أمام الرجل، ويوضع تحت الاختبار كل جزء من بدنها ، ويقاس كل عضو من أعضائها ، على مرأى ومسمع من المتفرجين والمتفرجات ، والعابثين والعابثات » [١] .

وكأن تبرج الجاهلية الأولى لا يعدّ شيئا فى جنب جاهلية القرن العشرين ، ولعل هذا هو ما حدا بالدكتور الشيخ يوسف القرضاوى لأن يقول : وقد رمتنا جاهلية هذا العصر بصور وألوان من التبّرج ، يعدّ معها تبرج الجاهلية الأولى ضربا من التصوّن والاحتشام [٢] .

ولهذا التبرج آثاره السيئة، وعواقبه المدمرة ؛ نظرا لما يؤدى إليه من إثارة الغرائز، وتحريك الكوامن ، والوقوع فى الإثم والفواحش ، فينهدم بنيان وكيان الشخصية المسلمة، وتصبح غير قادرة على القيام بمهامها وواجباتها، وأيضا لما يترتب عليه من انصراف الأم عن رعاية أولادها، والسهر على تربيتهم وإعدادهم ، فيضيع حملة الأمانة فى المستقبل، ويؤثر ذلك فى النهاية على قوة الأمة وعزتها .

يقول الشيخ سيد سابق عن آثار هذا الانحراف الخلقى :

وكان من نتائج هذا الانحراف أن كثر الفسق، وانتشر الزنا، وانهدم كيان الأسرة، وأهملت الواجبات الدينية، وتركت العناية بالأطفال، واشتدّت أزمة الزواج، وأصبح

---

(١) انظر : فقه السنة ٢/ ٢١٣ .

(٢) انظر: الحلال والحرام للدكتور القرضاوى ص١٦٠ .

الحرام أيسر حصولا من الحلال ، وبالجملة فقد أدى هذا التهتك إلى انحلال الأخلاق وتدمير الآداب التى اصطلح الناس عليها فى جميع المذاهب والأديان (١) .

ولعلّ ذلك هو سر الذمّ الشديد، والوعيد الضخم الوارد فى حديث الباب وفى أحاديث أخرى، كقوله ﷺ لأميمة بنت رُقَيقةَ، وقد جاءت تبايعه على الإسلام: «أبايعك على ألا تشركى بالله شيئا، ولاتسرقى، ولا تزنى، ولا تقتلى ولدك، ولا تأتى ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحى، ولا تبرّجى تبرج الجاهلية الأولى»(٢).

وكقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يكره عشر خلال : الصفرة ـ يعنى الخلوق ـ وتغيير الشيب ، وجرّ الإزار، والتختم بالذهب، والضرب بالكعاب، والتبرج بالزينة لغير محلها، والرّقى إلا بالمعوذات، وتعليق التمائم، وعزل الماء بغير محله، وإفساد الصبىّ ، غير محرّمه (٣).

وكقول موسى بن يسار: مرّت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف، فقال لها: أين تريدين يا أمة الجبار ؟ قالت: إلى المسجد، قال: وتطيبت ؟ قالت: نعم، قال: فارجعى واغتسلى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لايقبل الله صلاة من امرأة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل» (٤).

---

(١) انظر: فقه السنة ٣/ ٢١٣ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢ / ١٩٦ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا به .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الخاتم : باب ما جاء فى خاتم الذهب ٤ / ٨٩ ، ٩٠ رقم (٤٢٢٤) ، والنسائى فى : السنن : كتاب الزينة : باب الخضاب بالصفرة ٨ / ١٤٢ ، وأحمد فى : المسند ١ / ٣٨٠ ، ٣٩٧ ، ٤٣٩ ، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا به ،وبنحوه ، واللفظ للنسائى، وإفساد الصبى: هو إتيان المرأة المرضع، فإذا حملت فسد لبنها ، وكان من ذلك فساد الصبى، وقوله : « غير محرّمه » : أى أن النبى ﷺ كره الخلّة الأخيرة ولم يحرّمها ، أو كره جميع ما ذكر فى الحديث، ولم يحرمه، والتوجيه الأول أولى ؛ نظرا لأن بعض المذكورات حرام . انظر : زهر الرّبى على المجتبى للسيوطى ٨ / ١٤٢ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الترجل : باب فى طيب المرأة للخروج ٤ /٧٩ رقم (٤١٧٤)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة النساء ٢/١٣٢٦ رقم (٤٠٠٢) ، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٤٦، ٤٦١، كلهم من حديث عاصم بن عبيد الله العمرى عن عبيد الله مولى أبى رهم ، عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه . وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب النكاح : باب ترهيب المرأة أن تخرج من بيتها متعطرة متزينة ٣ / ٨٥ من حديث موسى بن يسار عن أبى هريرة مرفوعا به ، وعقب عليه قائلا : «رواه ابن خزيمة فى : صحيحه قال : باب إيجاب الغسل على المطيبة للخروج إلى المسجد، ونفى قبول صلاتها إن صلت قبل أن تغتسل ، إن صحّ الخبر . وإسناده متصل ، ورواته ثقات ، وعمرو بن هاشم البيروتى ثقة ، وفيه كلام لا يضر ، ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق عاصم بن عبيد الله العمرى، وقد مشاه بعضهم ، ولا يحتج به » .

وكقول عائشة رضي الله عنها : بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد، دخلت امرأة من مزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد، فقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس، انهوا نساءكم عن لبس الزينة، والتبختر فى المسجد، فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة، وتبخترن فى المساجد » (١).

فكل هذه النصوص ـ وغيرها كثير ـ ناطق بذمّ التبرج، ومتوعّد عليه أشدّ الوعيد، والتقييد فى حديث الباب بغياب الزوج، وتوفير مؤن الحياة، لايعنى أن الزوج إذا كان حاضرا، أو إذا لم يوفر مؤن الحياة، فإن للمرأة أن تتبرج، وإنما هو لفتة إلى أن غالب أسباب التبرج إنما تأتى من هذه الناحية، بأن يغيب الرجل عن أهله لسبب من الأسباب، أو يعجز عن توفير مؤن الحياة، فإذا بالشيطان يوسوس ويزين للمرأة الخروج للعمل، وكسب مؤن الحياة، وخلال ذلك يأخذ فى إغرائها بالتبرج شيئا فشيئا، علّها تكسب ودّ الآخرين، وتستدر عطفهم عليها، فتظفر بحاجتها دون كبير جهد أو عناء، وحينئذ تسقط ناسية أو متناسية: أن الحرّة تجوع ولا تأكل بثديها .

فالتقييد فى الحديث إذاً خرج مخرج الغالب، وإلا فالتبرج لغير الزوج حرام فى كل الأحوال، وعلى كل المستويات، كما يدل على ذلك العموم الوارد فى النصوص المذكورة آنفا، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾ [النور : ٦٠] ، ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

ولا يقال: الخطاب فى الآية الأخيرة مخصوص بنساء النبى ﷺ فلا يتناول غيرهن؛ لأن هذا من باب التحريض على الالتزام ، كأن الحق سبحانه يقول: إذا كنت أمرتُ نساء النبى بالعفة وعدم التبرج ـ وهو أمر لا يمكن أن يقع منهن ـ فغيرهن من نساء المؤمنين ممن يمكن أن يقع منه ذلك أولى بذا الأمر وأجدر .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة النساء ٢/ ١٣٢٦ رقم (٤٠٠١) من طريق موسى بن عبيدة عن داود بن مدرك، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله تعالى عنها مرفوعا به، وعقب عليه البوصيرى فى: مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ٤/ ١٨١ قائلا : « هذا إسناد ضعيف، داود بن مدرك قال فيه الذهبى فى كتاب الطبقات: نكرة لايعرف، وموسى بن عبيدة ضعيف، رواه محمد ابن يحيى بن أبى عمر فى مسنده فذكره بالإسناد والمتن، ورواه ابن أبى شيبة فى مسنده هكذا ، ورواه أحمد بن منيع فى مسنده عن مروان بن معاوية عن موسى بن عبيدة به » .

ما يستفاد من الحديث دعويا وتربويا :

ويستفاد من الحديث دعويا وتربويا عدة فوائد، نذكر منها:

١ ـ طاعة الإمام ومن ينيبه عنه ما دام يقيم حكم الله فى الأرض، ومادام لا يأمر إلا بمعروف ، ويعين على هذه الطاعة :

* أن يتذكر المسلم أنها فى الحقيقة طاعة لله ، وطاعة لرسولهﷺ . وأن يستحضر فوائد وثمرات هذه الطاعة فى الدنيا والآخرة وصدق الله : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨)** ﴾ [النساء] .

* وأن يستحضر عواقب التقصير فيها ، أو التضييع لها ، وقد مرّت كلمات على وحذيفة التى تصور هذه العواقب أدق تصوير .

* وأن يديم النظر فى سيرة السّلف، وكيف كان حرصهم على هذه الطاعة، وتفانيهم فى سبيل تحقيقها فى أنفسهم وفى واقع الحياة .

* وأن يلقى بنفسه فى أحضان من عرفوا واشتهروا بذلك ، علّه يكون دافعا إلى قوة الإرادة، وصدق العزيمة .

* وأن يتذكر أنها من سمات أعداء الله ، وأعداء أوليائه ، وإذا كانت هذه هى سمتهم وهم على الباطل ، فأحرى وأجدر بنا ـ نحن المسلمين ، ونحن على الحق ـ أن نكون أحرص عليها منهم .

٢ ـ ملازمة العمال والخدم للأعمال أو المهام الموكولة إليهم ، وعدم تخليهم عنها بفرار أو هرب ، ويعينهم على ذلك:

* أن يدرك العامل أو الخادم الأجر أو المثوبة المترتبة على ذلك فى الدنيا والآخرة.

* وأن يدرك عواقب التقصير أو التضييع لهذا الأمر فى الدنيا والآخرة كذلك .

* وأن يتذكر أن هذه الملازمة إنما هى فى الحقيقة طاعة لله وطاعة لرسولهﷺ .

٣ ـ ضرورة تحلى المرأة بخلق العفاف والطّهر ، وعدم التخلى عنه إلى التبرج والتهتك تحت ضغط أى سبب من الأسباب، ويعينها على ذلك :

* أن تتذكر أن هذا العفاف هو الذى يحفظ لها كرامتها وهيبتها ووقارها فى المجتمع.

* وأن تتذكر فوائد هذا العفاف وثمراته فى الدنيا والآخرة، وصدق الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

* وأن تدرك عواقب التفريط فيه إلى التبرّج، والتهتّك، لاسيما تلك التى تكون فى الآخرة .

* وأن تلازم صحبة أهل العفاف والتقى من الصالحات القانتات، الحافظات للغيب بما حفظ الله .

* وأن تديم النظر فى سير وأخبار المسلمات العفيفات، ومدى استجابتهن لأمر الله ورسوله ﷺ، إذ تقول عائشة رضي الله عنها عن نساء هذا الجيل الربّانى الذى ربّاه رسول الله ﷺ: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٣١] شققن أكنف (أكثف) مروطهن فاختمرن بها(١)، وفى رواية أنها ذكرت نساء الأنصار فأثنت عليهن، وقالت لهن معروفا،وقالت: لما نزلت سورة النور عمدن إلى حجور أو حجوز فشققنهن فاتخذنه خمرا(٢)، وقالت أمّ سلمة رضي الله عنها : لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية (٣).

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب التفسير : باب ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ١٣٦/٦، ١٣٧، وأبو داود فى : السنن : كتاب اللباس: باب فى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ٦١/٤ رقم (٤١٠٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها ، موقوفاً عليها واللفظ لأبى داود.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب اللباس: باب فى قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ﴾ ٦١/٤ رقم (٤١٠٠) من حديث صفية بنت شيبة، عن عائشة رضي الله عنها موقوفا عليها به .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب اللباس: باب فى قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ﴾ ٦١/٤ رقم (٤١٠١) من حديث صفية بنت شيبة عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا عليها به، وأورده ابن حجر فى: فتح البارى ٨/ ٤٩٠ من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية بلفظ: « ذكرنا عند عائشة نساء قريش وفضلهن ، فقالت : إنّ نساء قريش لفضلاء ، ولكنى والله ما رايت أفضل من نساء الأنصار: أشد تصديقا بكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها ، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها، فأصبحن يصلّين الصبح معتجرات كأن على رءوسهن الغربان » ، وعزاه إلى ابن أبى حاتم، ثم جمع بين هذه الرواية والتى قبلها، وبين الرواية الأولى الواردة فى شأن النساء المهاجرات فقال: « ويمكن الجمع بين الروايتين بأن نساء الأنصار بادرن إلى ذلك » .

* وأن تعلم أن أهل الكفر والإلحاد صاروا ينادون الآن بالعفاف، بعد ماسئموا حياة التبرج والفسق والفجور :

هذه كاتبة أمريكية فى الخامسة والعشرين من عمرها ، وقد زارت جميع بلاد العالم تكتب مقالا عقب زيارتها لمصر فى الستينات تحت عنوان : « امنعوا الاختلاط ، وقيّدوا حرية المرأة » تقول فيه :

إن المجتمع العربى مجتمع كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التى تقيد الفتاة والشاب فى حدود المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربى والأمريكى، فعندكم تقاليد موروثة تحتّم تقييد المرأة، وتحتّم احترام الأب والأم، وتحتّم أكثر من ذلك عدم الإباحية الغربية التى تهدد اليوم المجتمع والأسرة فى أوربا وأمريكا، ولذلك فإن القيود التى يفرضها المجتمع العربى على الفتاة الصغيرة ـ وأقصد ما تحت سنّ العشرين ـ هذه القيود صالحة ونافعة، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة، بل وارجعوا إلى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوربا وأمريكا. امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين، فقد عانينا منه فى أمريكا الكثير، لقد أصبح المجتمع الأمريكى مجتمعا معقدا، مليئا بكل صور الإباحية، والخلاعة، وأن ضحايا الاختلاط والحريّة قبل سن العشرين ، يملأون السجون والأرصفة ، والبارات والبيوت السرّية . إن الحرية التى أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار ، قد جعلت منهم عصابات أحداث ، وعصابات «جيمس دين » ، وعصابات للمخدرات والرقيق . إن الاختلاط والإباحية والحرية فى المجتمع الأوربى والأمريكى، هدد الأسر، وزلزل القيم والأخلاق. فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين فى المجتمع الحديث تخالط الشبان، وترقص « تشاتشا »، وتشرب الخمر والسجاير، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية، تلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، بل وتتحدى والديها ومدرسيها ، والمشرفين عليها ، تتحداهم باسم الحرية والاختلاط، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق، تتزوج فى دقائق، وتطلّق بعد ساعات، ولايكلفها هذا أكثر من إمضاء ، وعشرين قرشا، وعريس ليلة أولبضع ليال، وبعدها الطلاق وربما الزواج، فالطلاق مرة أخرى[1] .

---

(١) انظر : فقه السنة ٣/٢١٨ ، ٢١٩، نقلا عن صحيفة الجمهورية المصرية الصادرة يوم السبت الموافق ١٩٦٢/٦/٥ .

* وأن يعينها أولو الأمر والمجتمع ، على ما يحفظ عليها عفّتها وكرامتها ، وذلك بنشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة بكل ما يمكن من أساليب ووسائل.

٤ ـ أهمية الإنذار والتخويف فى الدعوة إلى الله،والتربية والاستقامة على الطريق، وحسبنا أن الإنذار تكرر فى القرآن الكريم بصيغ مختلفة مائة وعشرين مرّة، على حين لم يذكر التبشير فيه إلا ثلاثا وخمسين مرّة، منها ثمانية تحمل اسم التبشير، لكنها تتضمن معنى الإنذار والتخويف مثل قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)﴾ [التوبة] ، وما ذلك إلا لأهمية الإنذار فى الدعوة، والتربية والتوجيه [١] .

٥ ـ أنّ الإسلام فوق أنه دين، فهو منهج للحياة، ينظّمها ويسيّرها فى كل شأن من شئونها، وفى كل ناحية من نواحيها، وحسبنا هنا تحديده لواجب الرعية نحو الإمام، والخدم والعمال نحو وجهاء الأمّة، وذوى الرأى فيها ،والمرأة نحو زوجها، وأولادها، إن هذا وحده خير ردّ على من يزعمون أن الإسلام دين المحاريب، ولا شأن له بالحياة، وأنه لا دخل للدين فى السياسة، ولا للسياسة فى الدين، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف].

(١) انظر: مذكرة مبحث العقيدة الإسلامية، للدكتور يحيى هاشم فرغل ص ٣١ بتصرف .

الحديث الثالث والعشرون

قال رسول اللهﷺ :

« آمركم بثلاث ، وأنهاكم عن ثلاث : آمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا، وتعتصموا بحبل الله جميعا ولاَ تتفرقوا ، وتطيعوا لمن ولاه الله عليكم أمركم ، وأنهاكم عن : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ».

تخريجه :

الحديث أورده الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٣٠٤ رقم (٦٨٥) ، وعزاه إلى ابن حبّان قائلا : « أخرجه ابن حبان (١٤٥٣) من طريق عمرو بن الحارث : أن بكيرًا حدثه، أن سهيل بن ذكوان حدّثه، أنّ أباه حدثه عن أبى هريرة، عن رسول اللهﷺ أنه قال: فذكره »، وعقب عليه بقوله: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وأخرج مسلم نحوه فى: الصحيح: كتاب الأقضية: باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة ٣ / ١٣٤٠، ١٣٤١ رقم ١٠ ، ١١(١٧١٥) من طريق جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة، ولفظه: قال رسول اللهﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» ، ومن طريق أبى عوانة عن سهيل بهذا الإسناد مثله، غير أنه قال: «ويسخط لكم ثلاثا»، ولم يذكر: «ولا تفرّقوا»، ورقم ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من حديث المغيرة بن شعبة.

وكذا أخرج أحمد نحوه فى: المسند ٢/ ٣٢٧ ، ٣٦٠ من طريق حماد بن سلمة، و٣ / ٣٦٧ من طريق خالد، كلاهما عن سهيل بهذا الإسناد.

معناه :

يتوقف نجاح الإنسان فى أدائه لمهمته على ظهر هذه الأرض، وسعادته فى الحياة الدنيا على أمور عدّة، أهمّها:

* حسن الصلة بالله عزّ وجلّ، تلك التى تتمثل فى عبوديته سبحانه ، عبودية

خالصة من أى شائبة شرك أو ابتداع، فإن حسن الصلة هذا يكون سببا فى عونه سبحانه وتأييده لهذا الإنسان.

* ووحدة الصف تلك التى تتمثّل فى الاستمساك بهدى الله، والتجرد من حظوظ النفس، فإنها تكون سببا فى التراحم والتعاون والتكافل، بل وصيانة الدماء والأموال، والأعراض.

* وطاعة ولى الأمر تلك التى تتمثّل فى سرعة التنفيذ لما يراه دون هوادة أو لين، ما دام ذلك فى المعروف، فإنها تكون سببا فى القوة، مع توفير الوقت والجهد، وحفظ اللسان، ذلك الذى يتمثل فى ترك الدخول فيما لا يعنى، وكذلك فى الإقلال من السؤال إلا ما تدعو إليه الحاجة، وتفرضه الضرورة، فإنه يكون سببا فى الترابط والمحبّة.

* وحفظ المال، ذلك الذى يتمثّل فى صرفه فى وجوهه المشروعة، وعدم تعريضه للتلف أو للضياع، فإن ذلك يكون سببا فى الاستقلال، والتحرر من التبعية للغير بدون وجه حق.

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن، إنما هو دعوة صريحة من رسول اللهﷺ إلى الالتزام، والالتزام الدقيق بهذه الأمور الخمسة المذكورة آنفا.

وقد حَفَلَت هذه الدعوة منهﷺ بصيغة الأمر والنهى: «آمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث...» كى تقطع الطريق على الشيطان، فلا يتسرب إلى النفس، ويزيّن لها القعود أو التوانى، بحجة أن الالتزام بهذه الأمور ليس واجبا، وإنما هو نافلة أو تطوّع.

ذلك أن أمرهﷺ من أمر الله، ونهيه من نهى الله، وصدق الله: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ [النجم]، ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧].

ويعضّد هذا قولهﷺ فى بعض روايات الحديث عند مسلم وأحمد:

«إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا...».

ولكى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فإننا سنعرض للجوانب التالية:

الجانب الأول : مفهوم العبادة، وصورها، وعناصرها، وأقسامها، ومبرراتها، مع بعض النصوص التى تدعو إليها وتذمّ الشرك.

الجانب الثانى : بعض صور الشرك التى حذر الإسلام منها، والعوامل التى تساعد على العبودية ونبذ الشرك.

الجانب الثالث : بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل الوحدة وذم الفرقة، مع بيان العوامل التى تساعد على تحقيق هذه الوحدة.

الجانب الرابع : مفهوم طاعة ولى الأمر ، ومظاهر كمال هذه الطاعة وفوائدها مع بعض النصوص الواردة فى هذا الشأن.

الجانب الخامس : حقيقة النهى عن القيل والقال، وكثرة السؤال، مع بعض النصوص الواردة فى هذا الشأن، وبيان العوامل التى تساعد على حفظ اللسان.

الجانب السادس : حقيقة النهى عن إضاعة المال ، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن ، ومع بيان العوامل التى تساعد على حفظ المال.

ودونك البيان:

أولا : مفهوم العبادة ، وصورها ، وعناصرها ، وأقسامها ومبرراتها ، مع بعض النصوص التى تدعوا إليها ، وتذم الشرك :

يعرف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ـ المعروف بابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ ـ العبادة ، ويحدد صورها وعناصرها بقوله: « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة، فالصلاة والزكاة، والصيام والحج عبادة. وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود عبادة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة . والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والخادم ، والرحمة بالضعيف والرفق بالحيوان عبادة. وكذلك حب الله، ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء فى رحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك كله عبادة.

بل الدين كله داخل فى معنى العبادة، إذ الدين يتضمن معنى الخضوع، والذل، يقال: أدنته فدان، أى: أذللته فذلّ، ويقال: يدين الله، ويدين لله؛ أى يعبد اللّه، ويطيعه، ويخضع له، فدين الله: عبادته، وطاعته، والخضوع له.

والعبادة أصل معناها: الذل أيضا، يقال: طريق معبد، إذا كان مذلّلا قد وطأته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهى تتضمن غاية الذّل لله، بغاية المحبة له.

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ومن أحبّ شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب الرجل ولده، وصديقه.

ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء، بل لا يستحق المحبة، والذل التام إلاّ الله، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل »[1].

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة : ٢٤].

هذا هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة، وتحديده لصورها وعناصرها، وهو بذلك لم يَعْدُ ما فى كتاب الله عزّ وجلّ، وسنة النبى ﷺ وعمل السلف.

وحسبنا أن نرجع إلى المصحف الشريف، أو إلى أى ديوان من دواوين الحديث الصحيحة المشهورة كصحيح البخارى، أو كصحيح مسلم مثلا، وسنجد فيهما: أن كل شىء فى هذه الحياة ـ حتى معاشرة الرجل أهله ـ يعدّ عبادة، وعلى هذا مضى سلوك المسلمين حتى عصور الضعف، والانحلال والانحطاط، غاية ما فى الأمر أن هذه العبادة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول:

حدّده الشارع وبينه، وهو ما يعرف فى الفقه الإسلامى بالشعائر التعبدية أو بالعبادة المخصوصة، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والذكر والدعاء،

---

(١) انظر: العبادة فى الإسلام للدكتور الشيخ يوسف القرضاوى ص ٣١، ٣٢ نقلا عن رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

والاستغفار ونحو ذلك ، وهذا القسم لا يقبل عند الله ولا يعتد به إلا إذا صاحبه : الإخلاص له سبحانه ، واتباع السنّة ، قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠) ﴾ [الكهف].

القسم الآخر :

أطلقه الشارع، وهو ما يتناول جميع أعمال الإنسان اليومية، ويقال له : العبادة المطلقة، أو العبادة بمعناها العام، وهذا القسم لا يقبل عند الله إلا إذا قصد به وجه الله تعالى ومرضاته، ولم يتعارض مع روح الإسلام ونصوصه، وكان من ورائه منفعة أومصلحة تعود على الفرد والجماعة.

ولما كان الله موصوفا بالكمال التام، والجلال المطلق، ومتفضّلا بكل النعم، ما ظهر منها وما بطن: ما علمنا منها وما لم نعلم، وكان هذا التفضل مستمرا لا ينقطع أبدا، لما كان سبحانه كذلك كانت العبادة حقّه وحده، لا يشاركه فيها أحد، وقد جاءت بذلك نصوص كثيرة ـ غير حديث الباب.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة] ، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾ [يونس]، ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [الأنعام]، ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)﴾ [الزمر]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم]، ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ [لقمان] ، ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ [المائدة] .

وقال ﷺ : « يا معاذ، أتدرى ما حقّ الله على العباد ؟ ». قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقّ الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا »(١).

وقال أيضا : « إن الله أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإمّا أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى وأعذّب، فجمع يحيى الناس فى بيت المقدس، فامتلأ المسجد ، وقعد على الشرف فقال : إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمرنى بخمس كلمات أن أعملهن ، وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال له: هذه دارى وهذا عملى، فاعمل وأدّ إلىّ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك. . . » الحديث (٢).

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب اسم الفرس والحمار ٤/ ٣٥، وكتاب اللباس: باب إرداف الرجل خلف الرجل ٧/ ٢١٨، وكتاب الاستئذان : باب من أجاب بلبّيك وسعديك ٨/ ٧٤، وكتاب الرقاق: باب من جاهد نفسه فى طاعة الله ٨/ ١٣٠، ١٣١، وكتاب التوحيد: باب ما جاء في دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٩/ ١٤٠، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١/ ٥٨، ٥٩ رقم (٤٨ ـ ٥١)، والترمذى فى: السنن : كتاب الإيمان: باب ما جاء فى افتراق هذه الامة ٥/ ٢٦، ٢٧ رقم (٢٦٤٣)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٢/ ١٤٣٥، ١٤٣٦ رقم (٤٢٩٦)، كلهم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعا ، وعقب الترمذى على روايته بقوله : «هذا حديث حسن صحيح، وروى من غير وجه عن معاذ بن جبل ».

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه الإمام أحمد فى: المسند ٤/ ٢٠٢، والترمذى فى: السنن: كتاب الأمثال: باب ما جاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة ٥/ ١٣٦ ، ١٣٧ رقم (٢٨٦٣) كلاهما من حديث الحارث الأشعرى مرفوعا وتمامه : «. . . وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت ، وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة، ومعه صرّة فيها مسك،فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله وإنّ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، قال النبى ﷺ : «وأنا آمركم بخمس، الله أمرنى بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادّعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم ـ يعنى من المحكوم عليهم بالنار، والعياذ بالله » فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام ؟ قال : « وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»، وعقب عليه الترمذى بقوله: « هذا حديث حسن صحيح غريب».

كما قال ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى، تركته وشركه »[١] ، وفى رواية: « فأنا منه برىء، وهو للذى أشرك » [٢].

وقال ﷺ أيضا: « يقول الله تبارك وتعالى: أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكه، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله ـ عزّ وجلّ ـ فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أخلص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم، فإنها للرحم وليس لله منها شىء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله منها شىء»[٣].

كما قال ﷺ : «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدًا، فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » [٤] إلى غير ذلك من النصوص .

ثانيا : بعض صور الشرك التى حذر الإسلام منها، والعوامل التى تساعد على العبودية ونبذ الشرك :

هذا وهناك صور كثيرة للشرك، ذمّها الإسلام وحذّر من الوقوع فيها، وأهمها:

١ـ اتخاذ الأنداد مع الله تبارك وتعالى :

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب من أشرك فى عمله غير الله، وفى نسخة: باب تحريم الرياء ٤ / ٢٢٨٩ رقم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة ٢/ ١٤٠٥رقم (٤٢٠٢) كلاهما من حديث أبى هريرة ، مرفوعا به وبنحوه ، واللفظ لمسلم ، وأورده البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/ ٢٣٦، وعقب عليه قائلا : « هذا إسناد صحيح، رجاله موثقون، رواه ابن خزيمة فى صحيحه، والبيهقى. . . ».

(٢) هى رواية ابن ماجه المشار إليها منذ قليل فى تخريج حديث: « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ».

(٣) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: باب الترغيب فى الإخلاص والصدق والنية الصالحة ١/ ٥٥ رقم(٨) من حديث الضحاك بن قيس مرفوعا به، وعقب عليه قائلا: « رواه البزار بإسناد لا بأس به، والبيهقى ، لكن الضحاك بن قيس مختلف فى صحبته»، وأورده ابن رجب فى: جامع العلوم والحكم ص١٣، وعزاه إلى البزار فى : المسند.

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الكهف ٥/ ٢٩٤ رقم (٣١٥٤)، وقال عقيبه: « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب الرياء والسمعة ٢/ ١٤٠٦ رقم(٤٢٠٣)، وأحمد فى: المسند ٣/ ٤٦٦، ٤/ ٢١٥، كلهم من حديث أبى سعد بن أبى فضالة ، وكان من الصحابة مرفوعا.

﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)﴾ [ق].

وسئل ﷺ : أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندّا وهو خلقك . . . » الحديث[١].

وقال ﷺ لحصين : «كم تعبد من إله؟» قال: سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء، قال: « فإذا أصابك الضرّ مَن تدعو؟» قال: الذى فى السماء، قال: « فإذا هلك المال من تدعو؟» قال: الذى فى السماء، قال: « فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه، أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ » قال: لا واحدة من هاتين، قال : وعلمت أنى لم أكلم مثله، قال: « يا حصين أسلم تسلم . . . » الحديث[٢].

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾ ٦/ ١٣٧، ١٣٨، وكتاب الأدب : باب قتل الولد خشية أن يأكل معه ٨/ ٩ ، وكتاب المحاربين: باب إثم الزناة ٨ / ٢٠٤ ، وكتاب الديات : باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ ٩/ ٢، وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ٩/ ١٨٦ ، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده ١ / ٩٠ ، ٩١ رقم (١٤١، ١٤٢) ، أبو داود فى : السنن : كتاب الطلاق : باب فى تعظيم الزنا ٢ / ٢٩٤ رقم (٢٣١٠) ، والترمذى فى: السنن: كتاب التفسير: باب ومن سورة الفرقان ٥/ ٣١٤، ٣١٥ رقم (٣١٨٢، ٣١٨٣)، وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح»، والنسائى فى : السنن: كتاب تحريم الدم: باب ذكر أعظم الذنب ٧/ ٨٩ ، ٩٠ من طريق سفيان، عن واصل، عن أبى وائل، عن عمرو بن شرحبيل، عن عبد الله ابن مسعود ، ومن طريق سفيان عن وائل ، عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود ، ومن طريق يزيد، عن شعبة، عن عاصم، عن أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود، ثم عقب على الطريق الأخيرة قائلا: «هذا خطأ، والصواب الذى قبله ، وحديث يزيد هذا خطأ ، إنما هو واصل، والله تعالى أعلم »، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ ، كلهم من حديث عبد الله ابن مسعود ﷺ مرفوعا، ولفظه كما فى إحدى روايات البخارى: قلت: يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل لله ندا وهو خلقك »، قال: ثم أى ؟ قال: « أن تقتل ولدك خشية أن يأكل ـ أو يطعم ـ معك» قال : ثم أى ؟ قال: « أن تزانى حليلة جارك » ، وأنزل الله تصديق قول النبى ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الآية.

(٢) الحديث جزء من حديث طويل أورده ابن حجر فى: الإصابة ١/ ٣٣٧، ٣٣٨ رقم (١٧٣٥) وتمامه: «قال ابن خزيمة: حدثنا رجاء العذرى، حدثنا عمران بن خالد بن طُلَيْق بن محمد بن عمران بن حصين قال: حدثنى أبى، عن أبيه، عن جدّه أن قريشا جاءت إلى الحصين ـ وكانت تعظمه ـ فقالوا له: كلّم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر آلهتنا ويسبّهم، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ﷺ فقال: «أوسعوا للشيخ» ـ وعمران وأصحابه متوافرون ـ فقال: حصين: ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة ـ أى عاقلا متحصنا بدين آبائه وأجداده ، ومعتقداتهم ـ وخيرا ؟ فقال ﷺ : « يا حصين ، إن أبى وأباك فى النار ، ياحصين ، كم تعبد من إله ؟. . . » الحديث وفى آخره : أن حصينا قال: إن لى قوما وعشيرة ، فماذا أقول ؟ قال : « قل : اللهم أستهديك لأرشد أمرى ، وزدنى =

٢ ـ الاستعانة أو الاستغاثة بغير الله تبارك وتعالى :

قال ﷺ لابن عباس: « . . . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء ، لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (١).

فإذا دعا الإنسان مع الله غيره فقد أشرك، إذ الاستعانة أو الاستغاثة لا تكون إلا بالله، فقد كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبى ﷺ : « إنه لا يستغاث بى، وإنما يستغاث بالله » (٢).

٣ ـ الغلو أو المبالغة فى تعظيم الأشخاص ، ولاسيما الموتى منهم :

إذ جاء عنه ﷺ قوله: « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا : عبد الله ورسوله » (٣) ، « ولا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيدا، وصلّوا علىَّ ، فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » (٤).

= علما ينفعنى»، فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم، فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبى ﷺ بكى، وقال:« بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلمّا أسلم قضى حقه، فدخلنى من ذلك الرقّة» فلما أراد حصين أن يخرج، قال لأصحابه:« قوموا فشيّعوه إلى منزله»، فلما خرج من سُدّة الباب رأته قريش، فقالوا: صبأ وتفرقوا عنه، وعنه نقل الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ١/ ٧٥ ، ٧٦.

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٥٧٥، ٥٧٦ رقم (٢٥١٦)، وأحمد فى: المسند ١/ ٢٩٢، ٣٠٣ ، ٣٠٧، ٣٠٨،كلاهما من حديث عبد الله بن عباس ﷺ مرفوعا، واللفظ للترمذى، وقال عقيبه : « هذا حديث حسن صحيح ».

(٢) الحديث بهذا اللفظ أورده شيخ الإسلام ابن تيمية فى:مجموع الفتاوى١/ ٣٠٣، وعزاه إلى الطبرانى فى: المعجم الكبير من حديث أبى بكر ﷺ ، وعنه نقل الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى فى: العبادة فى الإسلام ص ٧٧، وأخرج أحمد نحوه فى: المسند ٥/ ٣١٧ قال: حدثنا موسى بن داود: حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح : أن رجلا سمع عبادة بن الصامت يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ﷺ : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ : « لا يقام لى إنما يقام لله ـ تبارك وتعالى » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ٤/ ٢٠٤، وكتاب المحاربين: باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٨/ ٢٠٨ ـ ٢١١، والدارمى فى: السنن: كتاب الرقاق: باب قول النبى ﷺ : «لا تطرونى » ٢/ ٣٢٠، وأحمد فى: المسند ١/ ٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥، ٥٦، كلهم من حديث ابن عباس عن عمر مرفوعا به، بيد أن البخارى ساقه فى: كتاب المحاربين على أنه قطعة من حديث السقيفة، وكذا أحمد فى روايته الأخيرة.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب المناسك (الحج): باب زيارة القبور ٢/ ٢١٨ رقم (٢٠٤٢)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٦٧ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعا ، واللفظ لأبى داود .

وجاء أناس إلى النبيﷺ فقالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيّدَنا وابن سيّدنا، فقال : « يأيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحبّ أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله ـ عزّ وجلّ »، وفى رواية: أنه قال لهم :« السيّد الله ـ تبارك وتعالى »[١].

٤ ـ الحلف بغير الله تعالى :

إذ الحلف تعظيم ، والتعظيم لا يكون إلا للحق تبارك وتعالى :

قال عليه الصلاة والسلام : « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله »[٢] ، «ومن حلف بغير الله فقد أشرك »[٣].

٥ ـ الذبح لغير الله تعالى :

إذ إن هذا الذبح قربة، والقربة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى : قالﷺ : « لعن الله من ذبح لغير الله »[٤].

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٣/ ١٥٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ من حديث أنس بن مالك مرفوعا بهذا اللفظ، ٤/ ٢٥ بنحوه من حديث عبد الله بن الشخّير، وكذا أبو داود فى: السنن : كتاب الأدب: باب فى كراهية التمادح ٤/ ٢٥٤ رقم (٤٨٠٦) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الشهادات: باب كيف يستحلف ٣/ ٢٥٣ ،كتاب الإيمان والنذور: باب لا تحلفوا بآبائكم ٨/ ١٦٤، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الأيمان: باب النهى عن الحلف بغير الله تعالى ٣/ ١٢٦٧ رقم (٣، ٤)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأيمان والنذور: باب كراهية الحلف بالآباء ٣/ ٢٢٢ رقم (٣٢٤٩) ، والترمذى فى: السنن: كتاب النذور والأيمان: باب ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله ٤/ ١١٠ رقم ١٥٣٤، والنسائى فى: السنن: كتاب الأيمان والنذور: باب التشديد فى الحلف بغير الله تعالى ٧/ ٤، والدارمى فى: السنن: كتاب النذور والأيمان: باب النهى عن الحلف بغير الله٢/ ١٨٥، ومالك فى: الموطأ: كتاب النذور والأيمان: باب جامع الأيمان ص ٣٢٠ رقم (١٠٣١)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٩٨، كلهم من حديث عبد الله بن عمر عن عمر مرفوعا، واللفظ لمسلم ، وعقب الترمذى على حديثه قائلا: « هذا حديث حسن صحيح ».

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأيمان والنذور: باب فى كراهية الحلف بالآباء ٣/ ٢٢٣ رقم (٣٢٥١) ، والترمذى فى : السنن : كتاب النذور والأيمان : باب ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله ٤/ ١١٠ رقم(١٥٣٥) ، وأحمد فى: المسند ١ / ٤٧ ، ٢/ ٣٤، ٦٧ ، ١٢٥ كلهم من حديث عبد الله ابن عمر مرفوعا ، واللفظ لأبى داود ، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث حسن » .

(٤) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الأضاحى: باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله ٣ / ١٥٦٧ رقم (٤٣ ـ ٤٥)، والنسائى فى: السنن: كتاب الضحايا : باب من ذبح لغير الله تعالى ٧ / ٢٣٢، وأحمد فى: المسند ١ / ١٠٨ ، ١١٨، ١٥٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، كلهم من حديث على رضي الله عنه وتمامه كما فى مسلم: أن أبا الطفيل عامر بن واثلة قال: كنت عند على بن أبى طالب، فأتاه رجل فقال: ما كان النبىﷺ يسرّ إليك ؟ قال : فغضب ، وقال : ما كان النبىﷺ يسرّ إلىّ شيئا يكتمه الناس، غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع، قال: فقال: ما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال: قال: « لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثا، ولعن الله من غيّر منار الأرض» وزاد أحمد رواية أخرى عن ابن عباس.

ولأجل هذا نهى الله عن أكل كلّ ما ذبح لغير الله، فقال: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤٥] ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : ١٢١]

٦ ـ اتخاذ بعض البشر من رجال الدين أو من رجال الدنيا مصدر تشريع، يحرّمون ويحلون بغير ما أذن الله، ثم طاعتهم فى كل ما يُشرّعون، وإن خالفوا ما شرع الله:

عن عدىّ بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] فقلت له ـ أى للنبى ﷺ: إنّا لسنا نعبدهم، فقال عليه الصلاة والسلام: « أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرّمونه، ويحلون ما حرّم الله فتحلّونه ؟ » قلت: بلى، قال: « فتلك عبادتهم إياهم » (١).

ولعل مما يساعد على تحقيق معنى العبودية لله تعالى فى النفس، ونبذ الشرك:

أ ـ أن يتأمل الإنسان حقيقة النعم التى تغمره وتحيط به، وينظر فى مصدرها، وستهديه الفطرة، ويرشده العقل ـ بإذن الله تعالى ـ إلى أن ذلك كله مردّه إلى الله، وإذًا فمن النكوص والنكران أن يأكل نعمة الله، ثم يتوجّه بالعبادة إلى غير الله.

ب ـ وأن يتأمل واقع الذين يتخذهم أندادا مع الله، وسيجد أن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا، ولا موتا، ولاحياة، ولانشورا، فضلا عن أن يملكوا ذلك لغيرهم: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى: فى السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة ٥/ ٢٧٨ رقم (٣٠٩٥)، قال: حدثنا الحسين بن يزيد الكوفى، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، عن مصعب ابن سعد، عن عدى بن حاتم، قال: أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب، فقال عليه الصلاة والسلام: « يا عدىّ، اطرح عنك هذا الوثن »، وسمعته يقرأ فى سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قال: « أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلّوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرّموه » ثم عقّب عليه بقوله: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث »، وأورده ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٤٨، ٣٤٩ على أنه قطعة من حديث طويل قائلا: « روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدىّ بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام... » الحديث.

وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] ، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨) ﴾ [الأعراف].

وإذًا فمن الجحود أن يشرك الإنسان هؤلاء مع الله، وهم لا حول لهم ولا قوة، كما جاء فى قصة إسلام عمرو بن الجموح ﷺ إذ يقول ابن إسحاق ﷺ :

« وكان عمرو بن الجموح من سادات بنى سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنما من خشب فى داره يقال له : مناة ، كما كانت الأشراف يصنعون ، يتخذه إلها يعظمه، ويطهّره، فلما أسلم فتيان بنى سلمة ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة، وفيها عذر الناس منكسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم، من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو ويلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيّبه، وطهره، ثم قال: أما والله لو أعلم مَنْ فعل به هذا لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمرو، عَدَوْا عليه ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أسى، فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما، فغسله، وطهره، وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له: إنى والله ما أعلم مَنْ يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع ، هذا السيف معك، فلما أمسى، ونام عمرو، عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به، فخرج يتبعه، حتى إذا وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلّمه من أسلم من قومه، فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه، فقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويذكر الله الذى أنقذه مما كان فيه من الغى والضلالة، ويقول:

والله لو كنت إلها لم تكن	أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أفّ لملقاك إلها مستدن	الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن	الواهب الرزاق ديّان الدّين
هو الذى أنقذنى من قبل أن	أكون فى ظلمة قبر مرتهن » [1]

(١) القصة أوردها الحافظ ابن كثير فى: السيرة النبوية ٢/٢٠٧، ٢٠٨ نقلا عن ابن إسحاق.

جـ ـ وأن يتذكر أن عاقبة الشرك فى الدنيا فضيحة وتشهير، وفى الآخرة خزى وعذاب جهنم وبئس المصير، وهذا هو الخسران المبين.

د ـ وأن يلازم صحبة من سيماهم الإخلاص، والصدق، فإن صحبة هؤلاء تحمل على الاقتداء والتأسّى أوعلى الأقل المحاكاة والتشبّه، على حد قول القائل :

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالصالحين فلاح

هـ ـ وأن يُذَكِّر بذلك دائما، فإن دأب الإنسان النسيان، وعلاج هذا النسيان التذكير، وصدق الله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [الأعلى] ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الفرقان].

ثالثا : بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل الوحدة ، وذم الفرقة، مع بيان العوامل التى تساعد على تحقيق هذه الوحدة :

أما عن فضل الوحدة، فقد وردت نصوص أخرى كثيرة تدعو إليها، وتذم الفرقة، نذكر منها قول الله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣]، ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة:٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الأنعام]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾ [الروم].

ونذكر منها كذلك قوله ﷺ : « إنّه ستكون هنات وهنات[1] ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهى جميع، فاضربوه بالسيف ، كائنا من كان » [2] ، « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم[3] أو يفرق جماعتكم

(١) الهنات جمع هنة ، تأنيث هن ، وقيل : واحدها هنت ، وتطلق فى الأصل على كل شىء ، والمراد بها هنا : الفتن والشرور والحادثة ، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤ / ٢٥٦.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ٣/ ١٤٧٩ رقم (٥٩) ، وأبو داود فى: السنن : كتاب السنة : باب فى قتل الخوارج ٤/٢٤٢ رقم (٤٧٦٢) ، وأحمد فى: المسند ٤ / ٣٤١ كلهم من حديث عرفجة بن شريح ﷺ مرفوعًا به.

(٣) يشق عصاكم : يعنى : يفرّق جماعتكم كما تفرّق العصاة المشقوقة ، وذلك عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس ، انظر : النهاية ٣ / ١٠٣ بتصرف .

فاقتلوه»[١]، « من فارق الجماعة شبرا، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه »[٢] ، « ثلاثة لا تسأل عنهم : رجل فارق الجماعة، وعصى إمامه، ومات عاصيا . . . » [٣].

وقال أبو ثعلبة الخشنى : كان الناس إذا نزل رسول الله ﷺ منزلا ، تفرقوا فى الشعاب والأودية، فقال رسول الله ﷺ : « إن تفرقكم فى هذه الشعاب والأودية، إنما ذلكم من الشيطان » ، فلم ينزل بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض، حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمّهم [٤].

وقال عمر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « . . . عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة. . . » [٥]. إلى غير ذلك من النصوص .

هذا، وهناك عوامل تساعد على تحقيق الوحدة، نذكر منها :

١ـ حسن الصلة بالله ـ عزّ وجلّ ـ تلك التى تتمثّل فى اتباع منهجه وإخلاص الوجهة له ، فإن هذه إن توافرت ، جرّدت النفس من كل حظوظها، وحينئذ يكون الربط على القلوب، والتأليف بين النفوس. وقد جاءت نصوص كثيرة تدعو إلى ذلك وتحضّ عليه، منها قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٣١].

وقوله تبارك وتعالى :« يقول الله تعالى فى الحديث القدسى: مَنْ عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلى عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينّه، ولئن استعاذنى لأعيذنّه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله، ترددى عن نفس المؤمن ، يكره

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع ٣/ ١٤٨٠ رقم (٦٠) من حديث عرفجة بن شريح مرفوعا به .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٧.

(٣) الحديث سبق تخريجه ص ٣٧.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب ما يؤمر من انضمام العسكر وسعته ٣ / ٤١ رقم (٢٦٢٨) ، وأحمد فى: المسند ٤ / ١٩٣ ، كلاهما من حديث أبى ثعلبة الخشنى رضي الله عنه مرفوعا به.

(٥) الحديث سبق تخريجه ص ١١ .

الموت، وأنا أكره مساءته»[١]، «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل، فقال: إنّى أحبّ فلانا فأحبّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السّماء فيقول: إن الله يحبّ فلانا فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إنّى أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض»[٢]، «وما توادّ رجلان فى الله عزّ وجلّ فتفرق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما والمحدث شرّ، والمحدث شرّ، والمحدث شرّ»[٣].

٢ ـ ورعاية الآداب الاجتماعية من التزاور، والسؤال عند الغياب، وبذل النصيحة، وطلاقة الوجه، والهدية، والمواساة، وإظهار المحاسن، وإخفاء المعايب، والوفاء بحق الصحبة، والعفو عن الهفوات والزلات، وترك التكلف، وإفشاء السلام، وإجابة الدعوة، وكل ما هو حق للأخ على أخيه، فإن هذه إذا روعيت أثمرت المحبّة والمودة، وحينئذ يكون الترابط والوحدة.

ـ إذ جاء عنه ﷺ: «أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله عزّ وجلّ قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه»[٤]، «لا تدخلون الجنة حتى

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب التواضع ٨ / ١٣١ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به، وأخرج أحمد نحوه فى: المسند ٦/ ٢٥٦ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجلّ: من أذل لى وليا فقد استحل محاربتى، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء الفرائض، وما يزال العبد يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبّه، وإن سألنى أعطيته، وإن دعانى أجبته، وما ترددت عن شىء أنا فاعله، ترددى على وفاته؛ لأنه يكره الموت».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح كتاب الأدب: باب المقت من الله تعالى ٨/ ١٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب إذا أحب الله عبدا حبّبه إلى عباده ٤/ ٢٠٣٠ رقم (٢٦٣٧) كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعا واللفظ لمسلم ولم يذكر البخارىّ البغض.

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٧١ من حديث الحسن عن رجل من بنى سليط قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى أزفلة من الناس، فسمعته يقول: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ها هنا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ وما توادّ رجلان فى الله ـ عزّ وجلّ ـ فتفرق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما، والمحدث شرّ...» الحديث، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب ما توادّ اثنان فيفرق بينهما إلا الذنب ١٠/ ٢٧٥ عن رجل من بنى سليط ثم عقّب عليه بقوله: «رواه أحمد وإسناده حسن».

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب فى فضل الحب فى الله ٤/ ١٩٨٨ رقم (٣٨)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٩٢، ٤٠٨، ٤٦٢، ٤٨٢، ٥٠٨ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم.

تؤمنوا، ولا تؤمنواحتى تحابّوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[١]، «ما من مسلمين التقيا أخذ أحدهما بيد صاحبه إلا كان حقا على الله عزّ وجلّ أن يحضر دعاءهما، ولا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما»[٢]، « تصافحوا يذهب الغِلُّ، وتهادَوْا تحابّوا، وتذهب الشحناء»[٣]، وغير ذلك من النصوص كثير.

٣ـ والتدبر فى ثمرات الوحدة، وعواقب الفرقة فى الدنيا والآخرة، فإن هذا كفيل بدفع أصحاب العقول السليمة، والفطرة المستقيمة من المسلمين، إلى الحفاظ على الوحدة، ونبذ الفرقة، مهما تكن التضحيات والتكاليف.

٤ـ والتأمل فى واقع أعداء الله، فإن هؤلاء ـ كما قدمنا فى حديث لزوم الجماعة ـ حريصون كل الحرص على التلاقى فيما بينهم، والوحدة فى شكل أحلاف عسكرية (حلف وارسو، الأطلنطى)، أو برلمانات سياسية (البرلمان الأوربى المشترك)، أو أسواق تجارية (السوق الأوربية المشتركة)، أو اتحادات جمهورية وولاياتية (جمهوريات الاتحاد

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها ١/ ٧٤ رقم (٩٣، ٩٤)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى إفشاء السلام ٤/ ٣٥٠ رقم (١٥٩٣) . والترمذى فى :السنن: كتاب الاستئذان: باب ما جاء فى إفشاء السلام ٥/ ٥٢ رقم (٢٦٨٨)، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب فى الإيمان ١/ ٢٦ رقم (٦٨) ، وكتاب الأدب: باب إفشاء السلام ٢/ ١٢١٧ ، ١٢١٨ رقم (٣٦٩٢) ، وأحمد فى: المسند ١/ ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ٢ / ٤٤٢، ٤٧٧، ٤٩٥، ٥١٢ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، واللفظ لمسلم، وعقب الترمذى على حديثه قائلا:«هذا حديث حسن صحيح » وزاد أحمد رواية أخرى من حديث الزبير بن العوام ﷺ بلفظ: « دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد، والبغضاء، والبغضاء هى الحالقة، حالقة الدين، لا حالقة الشعر، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن:كتاب الأدب: باب المصافحة ٤/ ٣٥٤ رقم (٥٢١١، ٥٢١٢) ، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الأدب: باب المصافحة ٢/ ١٢٢٠ رقم (٣٧٠٣)، وأحمد فى: المسند ٤/ ٢٨٩، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٣، والترمذى فى: السنن: كتاب الاستئذان: باب ما جاء فى المصافحة ٥/ ٧٤ ، ٧٥ رقم (٢٧٢٧) ، كلهم من حديث البراء بن عازب ﷺ مرفوعا ، واللفظ لأحمد ، وأخرج أبو يعلى نحوه فى: المسند ٥/ ٣٣٤ رقم (٢٠٥)، (٢٩٦٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ ولكن أعله الهيثمى فى: مجمع الزوائد ١٠/ ٢٧٥ بأن فيه:(درست بن حمزة) ، وهو ضعيف، ثم عاد فأورد له متابعات ٨/ ٣٦ عند أحمد والبزّار، وعقب قائلا : « ورجال أحمد رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان، وثقه ابن حبان ، ولم يضعّفه أحد» .

(٣) الحديث أخرجه مالك فى: الموطأ: كتاب الجامع: باب ما جاء فى المهاجرة ص ٦٥٣ رقم (١٦٤٢) من حديث عطاء بن أبى مسلم عبد الله الخرسانى مرسلا، وعطاء هذا: «صدوق يهم كثيرا، ويرسل ويدلّس» كما فى : التقريب لابن حجر ٢ / ٢٣.

السوفيتى سابقا ، الولايات المتحدة الأمريكية). وهم يحرصون كل الحرص على ذلك رغم أنهم على الباطل، ورغم ما بينهم من خلافات جوهرية، تمس أصول العقيدة.

لعل هذا التأمل يدفع عقلاء المسلمين، وذوى الضمائر الحية منهم، أن يحرصوا على الوحدة، وأن ينبذوا الفرقة،لاسيما وأنهم على الحق، وأن ليس بينهم من الخلافات العقيدية مثل ما عند خصومهم أو أعدائهم ، وإلى هذا يشير الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) ﴾

[الأنفال]

٥ ـ وطاعة ولى الأمر أو الإمام فى العسر واليسر، والشدة والرخاء ، والمنشط والمكره، وإلى آخر الزمان، ما دامت هذه الطاعة فى المعروف، فإن هذه الطاعة تؤدى إلى الوحدة، ونبذ الفرقة، وسيأتى بعد قليل تفصيل القول فى هذا العامل.

٦ـ والتذكير الدائم بضرورة الحفاظ على الوحدة، ونبذ الفرقة، حتى تظل الأمة عزيزة الجانب، مسموعة الكلمة، محروسة بعين الله ورعايته ، فإن الإنسان بطبيعته ينسى، ولا علاج لهذا النسيان إلا بالتذكير.

٧ـ التجوال الدائم فى سيرة السلف، وكيف كان حرصهم على الوحدة ، ونبذ الفرقة رغم ما كان يقع بينهم من اختلاف فى الرأى ووجهات النظر ، إذ كانوا يؤمنون ويوقنون أن الخلاف لا يفسد للود قضية.

وحسبنا فى هذا المقام ما أثرعن سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ ، إذ جاء أن رسول الله ﷺ وأبا بكر، وعمر، وعثمان ـ صدرا من خلافته ﷺ كانوا يصلون بمكة ومنى ركعتين ، ثم إن عثمان ﷺ صلاها أربعا، فبلغ ذلك ابن مسعود فاسترجع، ثم قام فصلى أربعا، فقيل له: استرجعت ثم صليت أربعا ؟ قال : « الخلاف شرّ »[١] .

وما أثر عن أبى ذر ﷺ ، إذ يقول رجل: كنا قد حملنا لأبى ذر ﷺ شيئا نريد أن نعطيه إياه، فأتينا الرّبذة فسألنا عنه فلم نجده، قيل: استأذن فى الحجّ فأذن له، فأتيناه بالبلدة وهى منى، فبينا نحن عنده إذ قيل له: إن عثمان ﷺ صلى أربعا، فاشتد ذلك عليه، وقال قولا شديدًا وقال : صليت مع رسول الله ﷺ فصلى ركعتين ، وصليت مع

---

[١] الأثر أورده الشيخ محمد يوسف فى حياة الصحابة ٢/ ٣ نقلا عن كنز العمال، وعزاه إلى عبد الرزاق فى: المصنّف من حديث قتادة ﷺ به، وأخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب المناسك(الحج): باب الصلاة بمنى ٢/ ١٩٩رقم (١٩٦٠) من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صلى عثمان بمنى أربعا. . . الأثر.

أبى بكر وعمر ﷺ ، ثم قام أبو ذر ﷺ فصلى أربعا، فقيل له: عبت على أمير المؤمنين شيئا، ثم تصنعه؟ قال: الخلاف أشدّ، إن رسول الله ﷺ خطبنا وقال: « إنه كائن بعدى سلطان فلا تذلوه، فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وليس بمقبول منه توبة حتى يسد ثلمته، وليس بفاعل، ثم يعود فيكون فيمن يعزره، أمرنا رسول الله ﷺ ألاّ يغلبونا على ثلاث: نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلم الناس السنن »(١).

هذان النموذجان ـ وغيرهما كثير ـ ينتهيان بالمسلم العاقل الغيور إلى الحرص على الوحدة، ونبذ الفرقة، وإن خالف ذلك هواه، ومراده.

رابعا : مفهوم طاعة ولى الأمر، ومظاهر كمال هذه الطاعة وفوائدها مع بعض النصوص الواردة فى هذا الشأن :

وأما مفهوم طاعة ولى الأمر فتتلخص فى النزول على حكمه، وتنفيذ ما يصدر عنه تَوًّا على النحو الذى صدر منه، وإن خالف هوى النفس والرأى ، ما دام فى المعروف، وما دام فى حدود الطاقة والوسع، إذيقول ﷺ: «على المرء المسلم السّمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(٢)، «لا طاعة فى معصية الله، إنما الطاعة فى المعروف »(٣).

---

(١) الأثر أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ١٦٥ عن رجل قال: كنا قد حملنا لأبى ذر ﷺ شيئا نريد أن نعطيه إياه. . .الأثر، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد ٥/ ٢١٦ وعزاه إلى أحمد عن رجل، ثم عقّب بقوله : « وفيه راو لم يُسمّ، وبقية رجاله ثقات».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأحكام : باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٩ / ٧٨ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب طاعة الأمراء ٣ / ١٤٦٩ رقم ٣٨ (١٨٣٩).

(٣) الحديث جزء حديث طويل ، أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المغازى: باب سرية عبد الله بن حذافة السّهمى ٥/ ٢٠٣ ، ٢٠٤، وكتاب الأحكام: باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ٩/ ٧٨، ٧٩، وكتاب الآحاد: باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق ٩/ ١٠٩، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية، وتحريمها فى المعصية ٣/ ١٤٦٩، ١٤٧٠ رقم (٣٩، ٤٠)، وأبو داود فى : السنن: كتاب الجهاد: باب فى الطاعة ٣/ ٤٠ رقم(٢٦٢٥)، والنسائى فى: السنن: كتاب البيعة: باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع ٧/ ١٥٩ ، ١٦٠، وأحمد فى: المسند ١/ ٨٢، ٩٤، ١٢٤، كلهم من حديث على بن أبى طالب ﷺ مرفوعا ، وتمامه ـ كما فى : مسلم ـ أن رسول الله ﷺ بعث سرية ، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه فى شىء، فقال: اجمعوا لى حطبا، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا نارا، فأوقدوا ، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تستمعوا لى وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه وطفئت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: « لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة فى المعروف»، وفى رواية أخرى له ـ أى لمسلم أيضا : أن رسول الله ﷺ قال للذين أرادوا أن يدخلوها: « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة» وقال للآخرين قولا حسنا، وقال : «لاطاعة فى معصية الله، إنما الطاعة فى المعروف ».

ويقول أبو الوليد عبادة بن الصامت ﷺ : دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا : أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، قال : « إلا أن تَرَوْا كفرًا بَوَاحًا عِنْدَكُم مِنَ الله فيه برهان»(١).

ويقول عبد الله بن عمر ﷺ : كان النبى ﷺ يبايع على السمع والطاعة، ثم يقول: « فيما استطعت» (٢)، ويقول ﷺ : « ... ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع...»(٣).

وأما المظاهر التى تدل على كمال هذه الطاعة فكثيرة، أهمها :

١ـ إطلاع القيادة بأقصى سرعة على آخر التطورات المتعلقة بالأمر الصادر ، وإن عظمت التكاليف ، وازدادت التضحيات :

ولعل خير تنظير لهذا المظهر ، ما أثر عن مصعب بن عمير ﷺ حين عاد من المدينة المنوّرة ، بعد غياب سنة داعيا إلى الإسلام ، ومعلما للقرآن ، ومربيا لمن دخل فى هذا الدين، فإنه حين عاد إلى مكة بدأ برسول الله ﷺ على أمه، ليحكى له أبعاد مهمته، وليحظى بشرف رؤيته والاستماع إليه، وليتلقى منه آخر التوجيهات، مع أنه لم يكن

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ : « سترون بعدى أمورًا تنكرونها » ٩ / ٥٩ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب طاعة الأمراء ٣/ ١٤٧٠ رقم (٤٢) .

(٢) الحديث اخرجه أحمد فى: المسند ٢/ ٩ من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا به.

(٣) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤ رقم (٤٦، ٤٧) ، والنسائى فى: السنن: كتاب البيعة: باب ذكر ما على مَنْ بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ٧/ ١٥٢ ـ ١٥٤، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن : باب ما يكون من الفتن ٢/ ١٣٠٦-١٣٠٧، وأحمد فى: المسند ٢/ ١٦١، ١٩١، ١٩٣ كلهم من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ﷺ وتمامه ـ كما فى مسلم: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فنزلنا منزلا، فمنّا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو فى جَشَرِه، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: « إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجىء فتنة، فيرقق بعضها بعضا، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتى، ثم تنكشف وتجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت للناس الذى يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده... » الحديث.

بمكة ـ يومئذ ـ شاب أبرّ بأمه منه، ومن سعد بن أبى وقاص، حتى أرسلت إليه أمه تعاتبه فى ذلك وتقول له: ياعاقّ، أتقدم بلدًا أنا فيه لا تبدأ بى ؟ فقال : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ، ثم لما سلّم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره،ذهب إلى أمه ليؤدى لها حق البر والصّلة [١].

٢ـ والصبر والتحمل حتى يقع التنفيذ للأمر على النحو الذى صدر به دون إخلال أو تعطيل :

ولعل خير ما يشرح هذا المظهر، ما يرويه جندب بن مكيث الجهنى عن نفسه، إذ يقول: « بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلابى إلى بنى الملوح بالكديد، وأمره أن يغير عليهم، وكنت فى سريته ، فعمدت إلى تلّ يطلعنى على الحاضر فانبطحت عليه، وذلك قبل غروب الشمس، فخرج رجل منهم، فنظر فرآنى منبطحا على التل، فقال لامرأته: إنى لأرى سوادا على هذا التلّ ما رأيته فى أول النهار، فانظرى لا تكون الكلاب اجترّت بعض أوعيتك؟ فنظرت فقالت: والله ما أفقد منها شيئا، قال: فناولينى قوسى وسهمين من نبلى، فناولته فرمانى بسهم فى جنبى أو قال : فى جبينى، فنزعته، فوضعته ولم أتحرك، ثم رمانى بالآخر فوضعه فى رأس منكبى، فنزعته فوضعته ولم أتحرك، فقال لامرأته: أما والله لقد خالطه سهماى، ولو كان ريبة لتحرك، فإذا أصبحت فابتغى سهمى فخذيهما لا تمضغهما على الكلاب ، قال: فأمهلنا حتى إذ راحت روايحهم ، وحتى احتلبوا وعطنوا وسكنوا، وذهبت عتمة من الليل، شننّا عليهم الغارة ، فقتلنا واستقنا النعم» [٢].

٣ـ وفهم الأمرالصادر فهما دقيقا، ضمانا لسلامة ودقة التنفيذ :

فهذا على رضي الله عنه يعطيه الرسول ﷺ الراية يوم خيبر، ثم يقول له: « اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت » ، ويدرك على رضي الله عنه بعد مضيّه لأداء مهمته أن التكليف الذى كلف به غير واضح فى ذهنه، فيعود بظهره امتثالا للأمر، ويسأل النبى عليه الصلاة

---

(١) القصة أوردها ابن سعد فى: الطبقات الكبرى ٣/ ١١٩.

(٢) الحديث أخرجه الواقدى فى: المغازى: باب سرية أميرها غالب بن عبد الله بالكديد فى صفر سنة ثمان ٢/ ٧٥٠ ـ ٧٥٢ . قال:« حدثنا عبد الله بن جعفر، عن عبد الواحد بن أبى عون عن يعقوب بن عتبة عن مسلم بن عبد الله الجهنى ، عن جندب بن مكيث الجهنى قال : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى أحد بنى كلب بن عوف فى سرية كنت فيهم، وأمره أن يشن الغارة على بنى الملوح بالكديد . . . » الحديث، وابن كثير فى: البداية والنهاية ٤/ ٢٢٢، ٢٢٣ نقلا عن ابن إسحاق به.

والسلام قائلا: علام أقاتل الناس ؟ فيرد النبيﷺ: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منّا دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله »[١].

٤ـ والاستجابة الفورية للأمر، وإن كان على خلاف الرأى وما تهوى النفس:

يقول حذيفة رضي الله عنه : لقد رأيتنا مع رسول اللهﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة، وقرّ، أى برد، فقال رسول اللهﷺ: « ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معى يوم القيامة؟ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: « ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معى يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيامة ؟ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال :« قم ياحذيفة فأتنا بخبر القوم»، فلم أجد بُدّا إذ دعانى باسمى أن أقوم، فقال : « اذهب فأتنى بخبر القوم، ولا تذعرهم علىّ »[٢].

٥ ـ بذل النصيحة :

ولعل أفضل ما يشرح لنا هذا المظهر ما كان يوم الحديبية: إذ دعى النَّبىّ رضي الله عنه عمر بن الخطاب ليبعثه إلى أهل مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال:

يا رسول الله ، إنّى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكّة مِنْ بنى عدى أحَد يمنعنى، وقد عرفتْ قريش عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكنّى أدلك على رجل أعزّ بها منّى: عثمان بن عفّان. فدعا رسول اللهﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنّه لم يأت لحرب، وإنّما جاء زائرًا لهذا البيت معظّما لحرمته.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجهاد: باب دعاء النبىﷺ إلى الإسلام والنبوّة ٤/ ٥٧، ٥٨، وباب فضل من أسلم على يديه رجل ٤/ ٧٣، وكتاب أصحاب النبىﷺ : باب من فضائل علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه ٥/ ٢٢، ٢٣، وكتاب المغازى: باب غزوة خيبر ٥/ ١٧١، ومسلم فى: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه ٤/ ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ رقم (٣٣ ـ ٣٥) ، والترمذى فى: السنن: كتاب المناقب: باب على بن أبى طالب رضي الله عنه ٥/ ٦٣٨ رقم (٣٧٢٤) كلهم من حديث عامر بن سعد مرفوعا بنحوه، وبمثله، وزاد مسلم روايتين، إحداهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، والأخرى من حديث سلمة بن الاكوع رضي الله عنه ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ».

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب ٣/ ١٤١٤، ١٤١٥ رقم (٩٩) (١٧٨٨)، وأحمد فى: المسند ٥/ ٣٩٢، ٣٩٣ كلاهما من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم، ومعنى «لا تذعرهم علىّ» : لا تعلمهم بنفسك وامش فى خفية ؛ لئلا ينفروا منك ويقبلوا علىّ . انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/ ٤٦.

وهناك سبب ثان لبذل عمر هذه النصيحة، وهو أن الحكومة يومها فى قريش كانتْ لبنى أميَّة ، وعثمان بن عفَّان أموى، وكان للوشائج القبلية فى هذا المجتمع الجاهلى نصيب، وأى نصيب، وظهر هذا واضحا فى استقبال قريش لسيدنا عثمان ﷺ ، إذ قالوا له حين بلَّغهم رسالة رسول الله ﷺ : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ، فقال : ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .

وسبب ثالث ، وهو أن سيدنا عثمان ﷺ كان رقيقا ليِّنا، محبَّبًا إلى قريش، حتى كانتْ المرأة إذا دلَّلتْ ولدها تقول :

أحبك والرحمنَ حبَّ قريش عثمان

لهذا كله بذل عمر النصيحة، واستحسنها رسول الله ﷺ ، فنزل عليها وأخذ بها[1].

٦ـ الاستئذان :

وهو أخذ الإذن عند أىِّ تصرف مِنْ شأنه أن يُخلَّ بوحدة الصفِّ، وتماسكه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ [النور : ٦٢] .

وسبب نزول الآية معروف ، إذ يحكى ابن إسحاق أنَّه لما جاء المشركون، وحاصروا المدينة فى غزوة الأحزاب، أمر النبى ﷺ بعمل خندق حول المدينة بمشورة سلمان وبدأ المسلمون فى العمل، وعمل معهم نبيُّهم، وإمامهم محمد ﷺ مواساةً لهم، وطمعا فى الأجر والمثوبة، وتخلف طائفة من المنافقين يعتذرون بالضعف، ومنهم مَنْ ينسل خُفْيَةً بغير إذنه، ولا علمه ﷺ فأنزل الله الآية[2].

وقد تمثل الصحابة ﷺ هذا المظهر عمليا، وحسبنا موقف عمر ﷺ إذ يقول: أستأذنت النبىَّ ﷺ فى العمرة، فأذن لى، وقال: «لا تنسنا يا أخى من دعائك» فقال عمر: كلمةٌ

(١) القصة أوردها ابن كثير في: السيرة النبوية ٣/٣١٨ ، ٣١٩ وعزاها إلى ابن إسحاق.

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن كثير ٣/١٨٢ ، ١٨٣ نقلا عن ابن إسحاق.

ما يسرنى أن لى بها فى الدنيا[١]. يعنى هذه كلمة عظيمة لا تعدلها الدنيا، وما فيها.

٧ـ الاستفسار عن كيفية التنفيذ :

وهو السؤال عن الطريقة التى يتم بها التنفيذ، أهى بعينها كما صدرتْ عن القيادة، أو يمكن تغييرها على ضوء الواقع؟ والقصة التالية خير ما يشرح هذا المظهر:

إذ يقول علىٌّ ﷺ : أكثروا على مارية أم إبراهيم فى قبطى ابن عمٍّ لها يزورها، ويختلف إليها، فقال رسول الله ﷺ: « خذ هذا السيف، فانطلق، فإن وجدتَه عندها فاقتله »، قال: قلتُ: يا رسول الله، أكون فى أمرك إذ أرسلتنى كالسِّكة المحماة لا يثنينى شىء حتى أمضى لما أمرتنى به أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال رسول الله ﷺ: « بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب».

فأقبلتُ متوشحا السيف، فوجدتُه عندها، فاخترطتُ السيف، فلما رآنى عرفَ أنى أريده، فأتى نخلةً فرقى فيها، ثم رمى بنفسه على قفاه. ثم شال رجليه فإذا به أجَبُّ أمسحَ، ماله مما للرجال، لا قليل ولا كثير، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «الحمد لله الذى صرف عنا أهل البيت».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنى محمد ابن عمر بن على بن أبى طالب، عن علىٍّ قال: قلت: يارسول الله، إذا بعثتنى أكون كالسِّكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ قال: « الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»[٢].

ولما اشتد الحصار على المسلمين يوم الخندق استشار النبى ﷺ السَّعدَين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة وهما سيدا الأوس والخزرج أن يصالح المشركين على ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنه، وعن أصحابه، فقالا: يا رسول الله، أمرا تحبُّه فنصنعه، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا ؟ فقال: « بل شىء أصنعه

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الصلاة: باب الدعاء ٢/ ١٦٩ رقم (١٤٩٨)، والترمذى فى: السنن: كتاب الدعوات: باب منه ٥/ ٥٥٩، ٥٦٠ رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الحج: باب فضل دعاء الحاج ١/ ٩٦٦ رقم (٢٨٩٤) كلهم من حديث عمر مرفوعا وقال عنه الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى: السيرة النبوية ٤/ ٦٠٢، ٦٠٣، وعزاه إلى ابن إسحاق، وأورد له شاهدا عند الإمام أحمد، وعقب عليه بقوله: « هكذا رواه مختصرا . وهو أصل الحديث الذى أوردناه ، وإسناد رجاله ثقات » .

لكم، والله ما أصنع ذلك، إلا لأنِّى رأيتُ العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم مِنْ كل جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر مَّا ».

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله، قد كنَّا وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولانعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدة إلا قرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزَّنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال النبىُّ ﷺ : « أنت وذاك »[1].

٨ ـ الحرص على أمن وسلامة القيـادة:

جاء عن سعد بن معاذ أنَّه قال للنَّبىِّ ﷺ يوم بدر: يا نبىَّ الله، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه، ونَعُدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوَّنا، فإن أعزَّنا الله، وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانتْ الأخرى جلسْتَ على ركائبك فلحقتَ بمن ورائنا مِنْ قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا، ما تخلفوا عنك، يمنعك اللّه بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه النبى ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بُنِىَ لرسول الله ﷺ عريشٌ كان فيه[2].

ولما هزم المشركون فى بدر، جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية فى الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناءً، وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير مِنْ أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب، ومصابهم، فقال صفوان: والله ما إن فى العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت، أما والله لولا دين علىَّ ليس عندى قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبتُ إلى محمد حتى أقتله فإن لى فيهم علَّةً، ابنى أسير فى أيديهم، فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عَلَىَّ دينك أنا أقضيه عنكَ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا، لا يسعنى شىء، يعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم علىَّ شأنى وشأنك، قال: سأفعل.

قال : ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له، وسُمَّ، ثُم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله

---

(١) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى: السيرة النبوية ٣/ ٢٠١، ٢٠٢، وعزاه إلى ابن إسحاق .

(٢) القصة أوردها الحافظ ابن كثير فى: السيرة النَّبوية ٢/ ٤٠٣، ٤٠٤، وعزاها إلى ابن إسحاق .

به، وما أراهم فى عدوِّهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ على باب المسجد متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله، عمير بن وهب ما جاء إلا لشرّ، وهو الذى حرش بيننا وحذرنا ـ أى قدرنا ـ للقوم يوم بدر ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا نبىَّ الله، هذا عدوُّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه، قال: « فأدخله علىَّ » قال : فأقبل عمر حتى أخذ حمالة سيفه فى عنقه، فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه، قال:« أرسله يا عمر، ادن يا عمير»، فدنا ثم قال: أنعم صباحا، وكانتْ تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة» ، قال: أما واللّه يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال: «فما جاء بك يا عمير؟ » قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه.

قال : « فما بال السيف فى عنقك ؟ » ، قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنتْ شيئا.

قال : « أصدقنى ما الذى جئتَ له ؟ »، قال: ما جئت إلا لذلك، قال: « بل قَعَدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دين علىَّ، وعيال عندى، لخرجتُ حتى أقتل محمدا، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك ، وعيالك ، على أن تقتلنى له، والله حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا نكذبك يا رسولَ الله بما كنتَ تأتينا به منْ خبر السماء، وما ينزل عليكَ من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلاّ أنا وصفوان، فوالله إنّى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق[1].

٩ـ المبادرة بطرح أو اقتراح ما هو نافع ومفيد :

جاء فى الخبر أن رسول الله ﷺ لما خرج لملاقاة المشركين فى بدر أخذ يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه،ولا نتأخر عنه أم هو الرأى، والحرب، والمكيدة ؟ .

---

(١) القصة أوردها الحافظ ابن كثير فى: السيرة النبوية ٢/ ٤٨٦، ٤٨٧، نقلا عن ابن إسحاق .

قال: « بل هو الرأى والحرب والمكيدة ».

قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: « لقد أشرت بالرأى »[١]، ونفذ ما قال الحباب.

١٠ ـ ترك الاجتهاد مع النص:

جاء فى الخبر أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشا يوم الحديبية جاءه عمر، فقال: ألست نبى الله حقا؟ قال: « بلَى»، قال: ألسنا على الحقِّ، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قال: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن؟ قال: « إنِّى رسول الله، ولستَ أعصيه، وهو ناصرى» قلت: أو لستَ كنتَ تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال: « بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلتُ: لا، قال: «فإنك آتيه، ومطوِّف به».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبى اللّه حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: قلت: فلم نعطى الدنيَّة فى ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله، وليس يعصى ربَّه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحقِّ [٢].

ولطاعة ولىّ الأمر فوائد جمة، وأهم هذه الفوائد:

١ ـ العزّة والسيادة:

فإن هذه الطاعة طريق الوحدة، والوحدة طريق القوة، والقوة تعنى العزّة والسيادة.

وقد صرّح بذلك سيدنا علىّ ﷺ، إذ يقول رجل: كنت عرّيفا فى زمن علىٍّ، فأمرنا بأمر، فقال: « أفعلتم ما أمرتكم ؟» قلنا: لا، قال: «والله لتفعلنّ ما تؤمرون به، أو لتركبنّ أعناقكم اليهود والنصارى»[٣].

---

(١) القصة أوردها الحافظ ابن كثير فى: السيرة النبوية ٢/ ٤٠٢، ٤٠٣، نقلا عن ابن إسحاق.

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى: السيرة النبوية ٣/ ٣٣٤، نقلا عن الزهرى.

(٣) الأثر أخرجه ابن أبى شيبة فى: المصنّف: كتاب الفتن ١٥/ ٥٧ رقم (١٩١٠٣) من حديث الأعمش عن شهر، عن رجل موقوفا على علىّ ﷺ به، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى: كنز العمال ٥/ ٧٨٠ رقم (١٤٣٦٧).

كما صرّح به أيضًا حذيفة ﷺ ، إذ يقول : « لا يمشين رجل منكم شبرًا إلى ذى سلطان ليذلّه، فلا والله لا يزال قوم أذلّوا السلطان أذلاء إلى يوم القيامة »[(١)].

٢ـ عدم فوات الدنيا لا فى نفس، ولا فى مال :

فقد يظن بعض الناس أنه بالطاعة ربما يضارّ فى نفسه، أو فى ماله، أو فيهما معا، والحقيقة ليست كذلك.

وفى قصة حذيفة بن اليمان التى ذكرنا طرفا منها آنفا، درس عملى لكل من تسول له نفسه عدم طاعة ولىِّ الأمر بحجة فوات الدنيا، أو شىء منها، إذ يقول: فلما ولّيت من عنده ـ أى من عند النبى ﷺ ـ جعلت كأنما أمشى فى حمّام حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار، فوضعت سهما فى كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: « ولا تذعرهم على » ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمّام، فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت[(٢)]، فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال : « قم يا نومان »[(٣)].

ومعنى هذا الكلام ـ كما يقول الإمام النووى : « أنه لم يجد البرد الذى يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئا، بل عافاه الله ببركة إجابته للنبى ﷺ وذهابه فيما وجهه إليه، ودعائه ﷺ ، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد ، حتى عاد إلى النبى ﷺ ، فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذى يجده الناس وهذا من معجزات رسول الله ﷺ[(٤)].

وكذلك فى قصة سعد بن أبى وقّاص ﷺ يوم بدر مثل هذا الدرس: إذ يقول: لما كان يوم بدر، قتل أخى عمير، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبى ﷺ قال : « اذهب فاطرحه فى القبض »، قال : فرجعت وبى

---

(١) الأثر أخرجه ابن أبى شيبة فى: المصنّف: كتاب الفتن ١٢٦/١٥ رقم (١٩٢٩٤) من حديث زياد بن علاقة عن قطبة بن مالك موقوفا على حذيفة بن اليمان ﷺ به، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى: كنز العمال ٥/ ٧٨١ رقم (١٤٣٧١).

(٢) قررت ـ بضم القاف وكسر الراء : أى بردت، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ٤/ ٤٢٩، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٤١.

(٣) الحديث سبق تخريجه ص ٧٤.

(٤) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ٤/ ٤٣٠.

ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى، وأخذ سلبى، قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: « اذهب فخذ سيفك »[(١)].

وفى بعض الروايات أن سعدا قال: يا رسول الله، قد شفانى الله من المشركين، فهب لى هذا السيف، قال: «إن هذا السيف ليس لك، ولا لى، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم لمن لم يبل بلائى، قال: إذ رجل يدعونى من ورائى، فقلت: قد أنزل فىّ شىء، قال: « كنت سألتنى هذا السيف، وليس هو لى، وإنه قد وهب لى، فهو لك » قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾[(٢)] [الأنفال: ١].

٣ـ الهداية إلى الصراط المستقيم، لاسيما فى الأمور المشكلة، والمواقف المباغتة:

فإن هذه الطاعة تعنى مجاهدة النفس، والانتصار على ميولها وأهوائها، وقد وعد الله من جاهدوا أنفسهم فى ذات الله أن يوفقهم إلى طريق الهداية والخلاص، فقال سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٤ـ المزيد من الثبات على الطاعة، والاستمساك بحبل الله المتين:

فإن مجرد وقوع هذه الطاعة، يعنى مناصبة أعداء الله العداء، والمسلم الواعى العاقل يخشى أنه إذا نكص على عقبيه، وخلع رداء هذه الطاعة، فقد فتح الطريق أمام أعداء الله ليتمكنوا منه ومن إخوانه المسلمين، وحينئذ تضيع عليه وعليهم ثمرات جهادهم وطاعتهم، وتتحول الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد، وحتى يفوّت مثل ذلك على أعداء الله، فإنه يجاهد نفسه أن تواصل هذه الطاعة، وأن تظل مستمسكة بحبل الله المتين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الله عزّ وجلّ كما يعاقب على المعصية بالوقوع فى معصية أخرى، فإنه يثبت على الطاعة بطاعة أخرى، وهكذا تتكاثر أشجار الطاعات، كل طاعة تثمر أخرى، حتى يأتى الله بالنصر والفرج القريب كما يقول سبحانه: ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)** ﴾ [محمد].

(١ ، ٢) الحديثان أخرجهما أحمد فى: المسند ١/١٧٨ ، ١٨٠، ١٨١ من حديث سعد بن أبى وقاص ﷺ مرفوعا به.

٥ ـ الأجر العظيم المتمثّل فى رضوان الله عزّ وجلّ وجنّته ومرافقة الصالحين :

إذ يقول ﷺ : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا : ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى » [(١)] ، « ومن يطع الأمير فقد أطاعنى، ومن أطاعنى فقد أطاع الله، ومن يعصى الأمير فقد عصانى، ومن عصانى فقد عصى الله » [(٢)].

ولقد جمع الحق تبارك وتعالى كل فوائد الطاعة التى ذكرنا فى قوله سبحانه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)** ﴾ [النساء] .

هذا، وقد وردت نصوص كثيرة فى شأن طاعة ولى الأمر ـ غير حديث الباب، وغير ما ورد مبثوثًا فى هذا الشرح ـ نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)** ﴾ [النساء] .

وقوله ﷺ : « عليك السمع والطاعة فى عسرك، ويسرك، ومنشطك، ومكرهك، وأثرة عليك » [(٣)] ، « إنّه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدلّ أمّته على خير

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ . . . ٩/ ١١٤، وأحمد فى: المسند ٢/ ١٦١، كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، واللفظ للبخارى، وله شاهد عند أحمد من حديث أبى أمامة الباهلى ٥/ ٢٥٨ ولفظه: « ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ٤/ ٦٠، ٦١، وكتاب الأحكام: باب قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ٩/ ٧٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية، وتحريمها فى المعصية ٣/ ١٤٦٦، ١٤٦٧ رقم (٣٢ ـ ٣٤) ، والنسائى فى: السنن: كتاب البيعة: باب الترغيب فى طاعة الإمام ٧/ ١٥٤، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٧٠، ٣١٣، ٣٤٢، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤١٦، ٤٦٧، ٤٧١، ٥١١، كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، واللفظ للبخارى.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية، وتحريمها فى المعصية ٣/ ١٤٦٧ رقم ٣٥ (١٨٣٦)، والنسائى فى: السنن: كتاب البيعة: باب البيعة على الأثرة ٧/ ١٣٨، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٨١ ، ٥/ ٣٢١،كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، ومن حديث عبادة بن الصامت فى الرواية الأخيرة لأحمد.

ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقّق[١] بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتى، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه، هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنّة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله، واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه، ومَنْ بايع إماما فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه، فاضربوا عنق الآخر»[٢]، «إن أمّر عليكم عبد مجدّع[٣] يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له، وأطيعوا»[٤]، إلى غير ذلك من النصوص.

خامسا : حقيقة النهى عن القيل والقال ، وكثرة السؤال، مع بعض النصوص الواردة فى هذا الشأن وبيان العوامل التى تساعد على حفظ اللسان :

وحقيقة النهى عن القيل والقال ، وكثرة السؤال ، قد اختلفت فيها الأنظار والعبارات، فقيل: معنى (قيل وقال) : النهى عن الخوض فى أخبار الناس، وحكايات ما لا يعنى من أحوالهم وتصرفاتهم، واختلفوا فى حقيقة هذين اللفظين على قولين: أحدهما: أنهما فعلان، (قيل) مبنى للمجهول أو لما لم يسمّ فاعله، و (قال) : فعل

---

(١) فيرقّق بعضها بعضا: هذه اللفظة رويت ـ كما يقول الإمام النووى فى شرحه على مسلم ١٢/ ٢٣٣ ـ على أوجه : « أحدها وهو الذى نقله القاضى عن جمهور الرواة: يرقّق بضم الياء وفتح الرّاء، وبقافين، أى يصير بعضها رقيقا لعظم ما بعده، فالثانى يجعل الأول رقيقا، وقيل: معناه: يشبه بعضها بعضا، وقيل: يدور بعضها فى بعض ويذهب ويجيء ، وقيل : معناه : يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها، والوجه الثانى: فيرفق بفتح الياء وإسكان الراء، وبعدها فاء مضمومة، والثالث: فيدفق بالدال المهملة الساكنة، وبالفاء المكسورة، أى يدفع ويصب، والدفق الصبّ».

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٧٢.

(٣) مجدّع : أى مقطع الأعضاء، والمراد: اسمع وأطع الأمير، وإن كان دنىء النسبة، بل لو كان عبدا أسود، مقطوع الأطراف، فإن طاعته واجبة ما دامت فى المعروف، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ١٤٨، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووى ١٢/ ٢٢٥.

(٤) الحديث جزء حديث طويل، أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب استحباب التبكير بالصبح فى أول وقتها ١/ ٤٤٨ رقم (٢٣٩) من حديث أبى ذر ﷺ مرفوعا، وكتاب الحج: باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر راكبا... ٢/ ٩٤٤ رقم (٣١١، ٣١٢) ، من حديث أم الحصين ﷺ مرفوعا، وكتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية ٣/ ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ رقم ٣٦ (١٨٣٧) من حديث أبى ذرّ وأم الحصين ٣٧ (١٨٣٨) من حديث أم الحصين، والترمذى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب ما جاء فى طاعة الإمام ٤/ ٢٠٩ رقم (١٧٠٦) من حديث أم الحصين، وعقّب عليه بقوله: « وفى الباب عن أبى هريرة، وعرباض بن سارية، وهذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أم الحصين»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الجهاد: باب طاعة الإمام ٢/ ٩٥٥ رقم (٢٨٦٠ ـ ٢٨٦٢) من حديث أنس بن مالك، وأمّ الحصين، وأبى ذر ﷺ وأحمد فى : المسند ٤/ ٧٠، ٥/ ٣٨١ ، ٦/ ٤٠٢ ، ٤٠٣ من حديث أم الحصين، ٥/ ١٦١ ، ١٧١ من حديث أبى ذر، وهذا اللفظ لمسلم.

ماض، والثانى: أنهما اسمان مجروران منوّنان ؛ لأن القيل، والقال، والقول، والقالة، كله بمعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ [النساء]، ومنه قولهم: كثر القيل والقال، وقيل: معنى (كثرة السؤال) : النهى عن التنطّع فى المسائل، والإكثار من السؤال عما لم يقع، ولا تدعُو إليه حاجة، وقيل: المراد به: النهى عن سؤال الناس أموالهم وما فى أيديهم، وقيل: يحتمل أن يكون المراد به النهى عن كثرة سؤال الإنسان عن حاله وتفاصيل أمره، فيدخل ذلك فى سؤاله عما لا يعنيه، ويتضمن ذلك حصول الحرج فى حق المسئول، فإنه قد لا يؤثر إخباره بأحواله، فإن أخبره شقّ عليه، وإن كذبه فى الإخبار أو تكلف التعريض لحقته المشقة، وإن أهمل جوابه ارتكب سوء الأدب، وعندى أنه لا مانع أن تكون هذه المعانى كلها مرادة، ما دام النص عاما، وما دامت القرائن الدالة على التخصيص معدومة(١).

على أنه قد جاءت نصوص كثيرة ـ غير حديث الباب ـ بكل ما قدمنا ، نذكر منها قوله ﷺ: « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع »(٢).

وقول أسود بن أصرم رضي الله عنه ، قلت: يا رسول الله، أوصنى، قال: « تملك يدك » قلت: فماذا أملك إذا لم أملك يدى؟ قال: « تملك لسانك » قلت: فماذا أملك إذا لم أملك لسانى؟ قال: « لا تبسط يدك إلا إلى الخير، ولا تقل بلسانك إلا معروفا » (٣).

وقول عقبة بن عامر رضي الله عنه ، قلت : يا رسول الله، ما النجاة ؟ قال : « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »(٤) .

---

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ١٢/ ١١.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى التشديد فى الكذب ٤/ ٢٩٧، ٢٩٨ رقم (٤٩٩٢)، فقال: حدثنا حفص بن عمر، ثنا شعبة، وثنا محمد بن الحسين، ثنا على بن حفص، قال: ثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، قال ابن حسين فى حديثه: عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: « كفى بالمرء إثما. . . » ثم عقب عليه قائلا: « ولم يذكر حفص أبا هريرة، ولم يسنده إلا هذا الشيخ ـ يعنى على بن حفص المدائنى»، ومسلم فى: الصحيح: المقدمة: باب النهى عن الحديث بكل ما سمع ١/ ١٠، ١١ رقم (٥) من حديث أبى هريرة مرفوعا، ومن حديث عمر موقوفا.

(٣) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الأدب وغيره: باب الترغيب فى الصمت إلا عن خير، والترهيب من كثرة الكلام ٣/ ٥٣٠، من حديث أسود بن أصرم هذا، وعقب عليه بقوله : « رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى بإسناد حسن، والبيهقى».

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى حفظ اللسان ٤/ ٦٠٥ رقم (٢٤٠٦) من حديث عقبة بن عامر مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن »، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الأدب وغيره: باب الترغيب فى الصمت إلا عن خير، والترهيب من كثرة الكلام ٣/ ٥٢٤ من حديث عقبة بن عامر، وعقب عليه بقوله: « رواه أبو داود والترمذى وابن أبى الدنيا فى العزلة، وفى الصمت، والبيهقى فى كتاب الزهد وغيره، كلهم من طريق عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد عن القاسم، عن أبى أمامة عنه » ، وقال الترمذى: «حديث حسن غريب».

وقولهﷺ: « من يضمن لى ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»[١]، «ذرونى ما تركتكم ، فإنما أهلك ما كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم»[٢]، « يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال: سدادا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال: سدادا من عيش ـ فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا»[٣].

وعن معاوية أنهﷺ: « نهى عن الغلوطات »[٤]، والغلوطات ـ كما فسرها الأوزاعى ـ شداد المسائل وصعابها[٥].

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب حفظ اللسان ٨/ ١٢٥، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى حفظ اللسان ٤/ ٦٠٦ كلاهما من حديث سهل بن سعد مرفوعا، واللفظ للبخارى، وعقب عليه الترمذى بقوله:« وفى الباب عن أبى هريرة وابن عباس، وحديث سهل حديث حسن صحيح غريب من حديث سهل بن سعد»، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الأدب: باب الترغيب فى الصمت إلا عن خير... ٣/ ٥٢٤، ٥٢٥، وعزاه إلى البخارى والترمذى عن سهل بن سعد.

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الحج: باب فرض الحج مرّة فى العمر ٢/ ٩٧٥ رقم(٤١٢)، كتاب الفضائل: باب توقيرهﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٤/ ١٨٣٠، ١٨٣١ رقم (١٣٠ ، ١٣١)، والنسائى فى: السنن: كتاب المناسك: باب وجوب الحج ٥/ ١١٠، ١١١، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب اتباع سنة رسول اللهﷺ ١/ ٣ رقم (٢) ، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٤٧، ٢٥٨ ، ٣١٣، ٣١٤ ، ٤٢٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٨ ، ٥١٧ كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الزكاة: باب من تحل له المسألة ٢/ ٧٢٢ رقم (١٠٩)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الزكاة: باب ما تجوز فيه المسألة ٢/ ١٢٠ رقم (١٦٤٠)، والنسائى فى السنن: كتاب الزكاة: باب الصدقة لمن تحمل بحمالة ٥/ ٨٨ ـ ٩٠ ، والدارمى فى: السنن : كتاب الزكاة : باب من تحل له الصدقة ١/ ٣٩٦، وأحمد فى: المسند ٥/ ٦٠، كلهم من حديث قبيصة بن مخارق الهلالى بلفظ: تحملت حمالة فأتيت رسول اللهﷺ أسأله فيها، فقال: « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال:« يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ... » الحديث.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب العلم : باب التوقّى فى الفتيا ٣/ ٣٢١ رقم (٣٦٥٦) من حديث معاوية مرفوعا ، وأحمد فى : المسند ٥/ ٤٣٥ عن رجل من أصحاب النبىﷺ وعن معاوية مرفوعا.

(٥) تفسير الأوزاعى للغلوطات أورده أبو داود فى: السنن: كتاب العلم: باب التوقّى فى الفتيا ٣/ ٣٢١، وأحمد فى: المسند ٥/ ٤٣٥.

وأما العوامل التى تساعد على حفظ اللسان حتى لا يقع فى القيل والقال وكثرة السؤال فكثيرة، أهمها :

١ـ أن يضع المسلم فى حسابه أنه إذا اشتغل بذلك مما لا يعنيه، ومما فيه مشقة على الناس، فسيفوته ما يعنيه، وستقع الكراهية بينه وبين الناس، الأمر الذى يؤدى إلى الفرقة والفشل، وصدق القائل: «من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه»(١).

٢ـ وأن يضع فى حسابه كذلك أن كلّ ما يتفوّه به إنما هو محسوب عليه ومحصىّ، وسيسأل وسيحاسب عليه بين يدى الله عزّ وجلّ : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء] ، ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق] ، فإن ذلك يحمل على حفظ اللسان وصيانته، كما جاء فى الخبر : « ومن حسب كلامه من عمله، قلّ كلامه إلا فيما يعنيه . . . »(٢).

٣ـ وأن يدرك أن كثرة الكلام تؤدى إلى قسوة القلوب، وذلك مما يبعد العبد عن ربه: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله: فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسى»(٣).

٤ـ وأن يديم النظر فى سيرة السلف الصالح ، وكيف كان حرصهم على الصمت إلا عن الخير، فقد دخل عمر يوما على أبى بكر الصديق ﷺ وأبو بكر يجبذ لسانه، فقال عمر : « مَهْ، غفر الله لك »، فقال له أبو بكر: « إن هذا أوردنى شر الموارد » (٤).

---

(١) هذا مشهور على الألسنة، ولم أجده فيما تحت يدى من مصادر.

(٢) الحديث جزء حديث طويل أورد المنذرى قطعة منه فى: الترغيب والترهيب: كتاب القضاء : باب الترهيب من الظلم. . . ٣/١٨٨ ـ ١٩٠ من حديث أبى ذرّ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟، قال: «كانت أمثالا كلها. . .» الحديث، ثم عقّب عليه قائلا: « رواه ابن حبان فى صحيحه، واللفظ له، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ».

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن :كتاب الزهد : باب منه ٤/٦٠٧، ٦٠٨ رقم (٢٤١١) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا بهذا اللفظ، وأخرج مالك نحوه فى الموطأ: باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله ص ٦٩٨ (بلغه) أن عيسى ابن مريم كان يقول: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد من الله ، ولكن لا تعلمون. . .» وعقب الترمذى على حديثه قائلا: « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب ».

(٤) الحديث أخرجه مالك فى: الموطأ: باب ما جاء فيما يخاف من اللسان ص ٦٩٩ رقم (١٨١٠) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر دخل على أبى بكر الصديق وهو يجبذ لسانه ـ أى يجذبه ـ فقال=

٥ـ وأن يقف على النصوص الواردة فى فضيلة الصمت، وذم كثرة الكلام، فإنها تساعد على أن يخزن المسلم لسانه إلا فيما يرضى الله سبحانه وتعالى.

٦ـ وأن يشغل نفسه بالطاعات، فإنه إن نجح فى ذلك، لم يعد لديه وقت ولا مجال ليشتغل بالقيل والقال، وكثرة السؤال، فما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

سادسا: حقيقة النهى عن إضاعة المال، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، ومع بيان العوامل التى تساعد على حفظ المال:

وحقيقة النهى عن إضاعة الأموال، تدو رحول تحريم إنفاقه فى غير وجهه المأذون فيه شرعا، سواء أكان ذلك فى الحرام أم فى الحلال، ولكن مع الإسراف والتبذير.

وقد جاءت نصوص شرعية كثيرة ـ غيرحديث الباب ـ تحذر من إضاعة المال، منها: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء : ٥]، ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) ﴾ [الإسراء]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا(٢٩)﴾ [الإسراء]، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان].

وقوله ﷺ لسعد بن أبى وقاص ـ وقد أراد أن يوصى بماله كله أو بثلثيه وهو فى مرض الموت ـ قوله له: «... فالثلث، والثلث كثير، إنّك أن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس فى أيديهم...»[1].

= له عمر: «مَهْ...» الحديث، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الأدب: باب الترغيب فى الصمت إلا عن خير ٣/ ٥٣٤ من حديث أسلم عن عمر، وعقّب عليه بقوله: «رواه مالك، وابن أبى الدنيا، والبيهقى».

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجنائز: باب رثى النبى ﷺ سعد بن خولة ٢/ ١٠٣، وكتاب الوصايا: باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفّفوا الناس، وباب الوصية بالثلث ٤/ ٣، ٤، وكتاب مناقب الأنصار: باب قول النبى ﷺ: «اللهم أمض لأصحابى هجرتهم»، ومرثيته لمن مات بمكة ٥/ ٨٧، ٨٨، وكتاب المغازى: باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٥، وكتاب النفقات: باب منه ٧/ ٨٠، ٨١، وكتاب المرضى: باب قول المريض: إنى وجع... ٧/ ١٥٥، وكتاب الدعوات: باب الدعاء برفع الوباء والوجع ٨/ ٩٩، وكتاب الفرائض: باب ميراث البنات ٨/ ١٨٧، ١٨٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الوصية: باب الوصية بالثلث ٣/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٣ رقم (٥ ـ ٩)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الوصايا: باب ما جاء فيما يؤمر به من الوصية ٣/ ١١٢، ١١٣ رقم (٢٨٦٤)، والترمذى فى: السنن: كتاب الجنائز: باب ما جاء فى الوصية بالثلث والربع ٣/ ٣٠٥، ٣٠٦ رقم (٩٧٥)، والنسائى فى: السنن: كتاب الوصايا: باب الوصية بالثلث ٦/ ٢٤١ ـ ٢٤٤، وابن ماجه: فى السنن: كتاب الوصايا: باب الوصية بالثلث ٢/ ٩٠٣، ٩٠٤ رقم (٢٧٠٨)، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب الوصايا: =

وحديث جابر بن عبد الله ﷺ إذ يقول: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب، فقال: يارسول الله ، خذها صدقة، فوالله لا أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ: ثم أتاه من بين يديه، فقال: « هاتها » مغضبا، فأخذها منه، ثم حذفه بها بحيث لو أصابته لأوجعته ثم قال : « يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره ، ثم يجلس يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى ، خذها لا حاجة لنا فيها » (١) ، وغير ذلك كثير.

ولعل مما يعين على التصرف فى المال بحكمة، وعدم إضاعته بإتلاف أو تبذير أو إنفاق فى محرّم :

١ـ أن يتذكر المسلم أن المال هو عصب هذه الحياة، به قيامها واستمرارها، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء :٥].

٢ـ وأن يستحضر أننا بإضاعتنا لأموالنا، وحفاظ أعدائنا على أموالهم صرنا رهينة لهم، وفريسة بين أنيابهم، وفى قبضة أيديهم.

٣ـ وأن يوقن أنه مسئول عن هذا المال بين يدى الله تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]، وكما قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» (٢).

٤ـ وأن يقف على النصوص التى تأمر بالحفاظ على الأموال، وتحذر من إضاعتها على أى صورة من الصور.

= باب الوصية بالثلث ٢/ ٤٠٧ ، ومالك فى : الموطأ : كتاب الأقضية : باب الوصية فى الثلث لا يتعدى ص ٥٤١ رقم (١٤٥٢)، وأحمد فى: المسند ١/ ١٧٦ كلهم من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله:« حديث سعد حديث حسن صحيح» وأوله كما عند البخارى فى الجنائز : أن سعدا قال: كان رسول الله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى، فقلت: إنى قد بلغ بى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا ابنة، أفأتصدق بثلثى مالى. . .» الحديث.

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الزكاة: باب الرجل يخرج من ماله ٢/ ١٢٨ رقم (١٦٧٣)، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب الزكاة: باب النهى عن الصدقة بجميع ما عند الرجل ١/ ٣٩١، كلاهما من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعا.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة: باب فى القيامة ٤/ ٦١٢ رقم (٢٤١٧) من حديث أبى برزة الأسلمى مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

ما يستفاد من الحديث دعويا وتربويا :

يستفاد من الحديث دعويا وتربويا الفوائد التالية :

١ـ مجاهدة النفس حتى تصل إلى أعلى مراتب العبودية، من نبذ للشرك، والنزول على حكم الله ورسوله ، فى كل ما تأتى ، وما تذر.

٢ـ الحرص الشديد على لزوم الجماعة، فإنها طريق التمكين لمنهج الله فى الأرض، بل وحمايته من كيد الكائدين، وعبث العابثين.

٣ـ طاعة ولى الأمر فى كل الظروف وعلى كل الأحوال ، ما دامت فى المعروف ، إذ هى طريق العزّة والسيادة، وصدق عبد الله بن المبارك إذ يقول:

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا رحمة منه ورضوانا

لولا الأئمة لم يؤمن لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا[1]

٤ـ اجتناب الوقوع فى القيل والقال، وكثرة السؤال، لما يترتب على ذلك من الشحناء والقطيعة والفرقة، الأمر الذى يكون معه الذل والهوان.

٥ـ الحفاظ على المال، وعدم إنفاقه إلا فيما يرضى الله، وفيما تكون به سعادة الفرد والجماعة.

٦ـ الاستمساك بهذا الدين، والعضّ عليه بالنواجذ، إذ هو الصراط المستقيم، الجامع لخيرى الدنيا والآخرة : ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف] ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم** ﴾ [الزمر :٥٥].

٧ـ النزول على حكمه ﷺ فى كل ما نأتى وما ندع ، إذ حكمه ﷺ هو حكم الله ، ولم لا يكون كذلك وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴿٣﴾ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴿٤﴾ ﴾ [النجم] ، ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧]، وقال رسول الله ﷺ فى حديث الباب : « آمركم بثلاث. . . وأنهاكم عن ثلاث. . . ».

---

(١) البيتان أوردهما الحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء ٨/ ١٦٤ ضمن قصيدة طويلة تكشف عن عقيدة ابن المبارك وفهمه العميق للإسلام ، وعنه نقل محمد عثمان جمال فى : (عبد الله بن المبارك الإمام القدوة ص ٢٨٥).

الحديث الرابع والعشرون

قال رسول الله ﷺ :

« سبعة يظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربِّه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنِّى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

تخريجه :

الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأذان: باب مَنْ جلس فى المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد ١/ ١٦٨، وكتاب الزكاة: باب الصدقة باليمين ٢/ ١٣٨، وكتاب الرقاق: باب البكاء من خشية الله ٨/ ١٢٥، ١٢٦، وكتاب الحدود: باب فضل مَنْ ترك الفواحش ٨/ ٢٠٣ من حديث أبى هريرة مرفوعا بهذا اللفظ فى الروايتين الأولى والثانية، ومقتصرا على صنف البكائين فى الرواية الثالثة، وبتقديم بعض هذه الأصناف على بعض فى الرواية الأخيرة.

ومسلم فى: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل إخفاء الصدقة ٢/ ٧١٥، ٧١٦ رقم (٩١) من حديث أبى هريرة على القطع مع تقديم اليمين على الشمال فى التخفِّى بالصدقة ومن حديث أبى سعيد وأبى هريرة على الشكِّ .

والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى الحبِّ فى الله ٤/ ٥٩٨، ٥٩٩ رقم (٢٣٩١) من حديث أبى هريرة أو أبى سعيد، وعقب عليه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا، وشك فيه، وقال: عن أبى هريرة أوعن أبى سعيد، وعبيد الله بن عمر، رواه عن حبيب بن عبد الرحمن، ولم يشك فيه يقول عن أبى هريرة».

والنسائى فى : السنن : كتاب آداب القضاة : باب الإمام العادل ٨/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ مِنْ حديث أبى هريرة بمثل رواية البخارى الأخيرة.

ومالك فى: الموطأ : باب ما جاء فى المتحابِّين فى الله ص ٦٧٩ رقم (١٧٣٣) من حديث أبى سعيد أو أبى هريرة بمثل رواية البخارى الأخيرة.

وأحمد فى: المسند ٢/ ٤٣٩ من حديث أبى هريرة، مع تقديم صنف : الذى ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه على: الذى تصدَّق بصدقة فأخفاها.

معناه :

يقرر الإسلام أن الحياة الدنيا إنَّما هى دار اختبار وابتلاء : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)** ﴾ [محمد].

وأن هذه الدنيا مهما طالت فهى إلى زوال أو فناء، وأن الدار الآخرة هى دار القرار: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ [القصص : ٨٨]، ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [الرحمن]، ﴿ **وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)** ﴾ [غافر].

ويقرر كذلك أن الدار الآخرة ليست منقطعة أو منفصلة عن الحياة الدنيا، وإنَّما هى امتداد واستمرار لها، فما يكون فى هذه الحياة الدنيا ستظهر نتيجته هناك فى الدار الآخرة إن خيرا فخير، وإن شرا فشر: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [الزلزلة]، وأن نعيم الدنيا مهما عظم فهو قليل فى جنب نعيم الآخرة، وأن تعب الدنيا مهما اشتد فهو يسير جدا فى جنب تعب الآخرة.

وأن على الإنسان أن يجاهد نفسه هنا فى هذه الحياة الدنيا،وأن يتحمَّل المشاقَّ والمتاعب، وأن يستقيم على أمر الله حتى يظفر هناك غدا فى الآخرة براحة ونعيم مقيم ينسيانه كل مشقة وكل تعب، وإلا فسيلقى هناك من المشاق، والمتاعب، والعذاب ما يذوب وتتلاشى معه كل راحة وكل نعيم على نحو ما صوره رسول ﷺ إذ قال: «يُؤتَى بأنْعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ فى النّار صبغةً، ثم يقال: يا بن آدم، هل رأيتَ خيرا قطُّ؟ هل مرَّ بك نَعيمٌ قطُّ ؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصْبغُ صبغةً فى الجنَّة، فيقال له: يابن آدم، هل رأيت بؤساً قطُّ؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول : لا والله ، ما مرّ بى بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدةً قطُّ » (١) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : باب صبغ أنعم أهل الدنيا فى النار، وصبغ أشدهم بؤسا فى الجنة ٤/ ٢١٦٢ رقم ٥٥ (٢٨٠٧)، وأحمد فى: المسند ٣/ ٢٠٣، ٢٥٣، ٢٥٤ كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن : إنما هو دعوة إلى سبعة أصناف أوْ سبع طوائف من الناس أن يجاهدوا أنفسهم، فلا تغرّنهم الحياة الدنيا ولا يغرنهم باللّه الغرور، وأن يلزموا هذه المجاهدة حتى تنتهى بهم الحياة الدنيا فيظفروا ويفوزوا غدا بالراحة والنعيم، حيث يظلّهم الله فى ظلّ عرشه يوم لاظلّ إلا ظلّه، يوم : « تُدْنَى الشمس من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميْل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم منْ يكون إلى كعبيه ومنهم منْ يكون إلى ركبتيه، ومنهم منْ يكون إلى حقْويه[(١)]، ومنهم منْ يُلجمه العرق إلجاما »[(٢)] .

* فالإمام فى رعيّته أو في سلطانه لابد أن يجاهد نفسه وأن يحملها حملا على أن تلزم العدل والقسطاس المستقيم .

* والشاب فى عنفوان شبابه وحيويته، وإلحاح الشهوة عليه، وإغراء البيئة له لابد أن يجاهد نفسه، وأن يحملها حملا على لزوم طريق الطاعة والعبودية وعدم التحول عنها بحال .

* والمرء فى زحمة اشتغاله ومعالجته للحياة الدنيا لابد أن يجاهد نفسه وأن يحملها على كثرة ولوج المساجد، بل والتعلق بها من حين يخرج منها حتى يعود إليها.

* والمرء فى محبته لإخوانه فى الدين لابد أن يجاهد نفسه وأن يحملها حملا على أن تكون هذه المحبة اجتماعا وتفرقا لله، ولله وحده.

* والمرء فى علاقته مع النوع الآخر من بنى جنسه لاسيما منْ كان ذا منصب وجمال لابد أن يجاهد نفسه، وأن يحملها حملا على أن تكون مراقبة الله والخوف منه هى أساس هذه العلاقة .

---

(١) إلى حقويه: يعنى: إلى وسطه، إذ الحقو في الأصل هو: معقد الإزار أى الوسط. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٢٤٥ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : باب فى صفة يوم القيامة، أعاننا الله على أهوالها ٤/ ٢١٩٦ رقم ٦٢ (٢٨٦٤)، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة: باب ماجاء في شأن الحساب والقصاص ٤/ ٦١٤، ٦١٥ رقم (٢٤٢١)، وأحمد فى : المسند ٦/ ٣، ٤ كلهم من حديث سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود مرفوعا، واللفظ لمسلم، وعقب الترمذى على روايته قائلا: « هذا حديث حسن صحيح » .

* والمرء فى صدقته لابد أن يجاهد نفسه وأن يحملها حملا على أن تكون هذه الصدقة فى السرّ بحيث لو كانت شماله تعى وتعقل فإنها لاتعلم ما تتصدق به اليمين .

* والمرء فى خلوته لابد أن يجاهد نفسه وأن يحملها حملا على أن تكون ذاكرةً لربها ذكراً تدمع به عيناه، خوفاً من عقابه سبحانه، ورجاء فى ثوابه .

ولقد سلك النبى ﷺ فى حث هذه الأصناف السبعة على الالتزام بهذه الأخلاق، وتلك القيم والمبادئ مسلك الخبر المقرون بالوعد، الذى يحمل فى طياته معنى الأمر، فقال : « سبعة يظلهم الله فى ظلّه يوم لاظلّ إلا ظلّه: إمام عادل . . . »، وهو يريد: اعدلوا أيها الأئمة، والزموا أيها الشباب الطريق القويم منذ تصلون إلى البلوغ أو الحلم. . . لتكونوا فى ظل عرش الرحمن يوم لاظل إلاظله .

سلك ﷺ ذلك ليلفت النظر إلى أن طبيعة المسلم الذى استقامت فطرته، وسلم عقله: طبيعة شفافة، شديدة الحساسية، حتى لكأنها لا تحتاج فى الدعوة إلى الامتثال والتنفيذ إلى الأوامر الصريحة الجازمة، وإنما يكفيها أن يشعر ولو من طرف بعيد أن هذا يرضى عنه الله ورسوله، فتمتثل وتنفذ، وكأنما أمرتْ بذلك أمرا صريحا، مع عدم المبالاة بما يمكن أن يقع بعد من متاعب ومشقات .

ولعمرى إن هذا الأسلوب بديع في التربية والدعوة إلى الامتثال والتنفيذ يعدل أسلوب الأوامر الجازمة الصريحة إن لم يكن أسبق وأوفق، وحتى تبرز معالم الحديث بصورة أوضح، فإننا سنعرض له مِنْ عدة جوانب:

الجانب الأول : مفهوم العدد فى قوله ﷺ : « سبعة يظلُّهم الله. . . » وتحديد المراد بظلِّه سبحانه الوارد فى الحديث.

الجانب الثانى : المراد بالإمام ، وبالعادل وسر الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تعين الإمام على العدالة.

الجانب الثالث : المرادُ بنشأة الشباب فى عبادة الله ، وسرّ الدخول ، ضمن هذه الأصناف مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على النشأة فى عبادة الله.

الجانب الرابع : المراد بتعلق القلب بالمساجد ، وسر الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك .

الجانب الخامس : المراد بالتحابّ فى الله اجتماعا وتفرقا، وسر الدخول ضمن هذه الأصناف مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن ، والعوامل التى تساعد على ذلك .

الجانب السادس : المراد بالخوف من الله المانع من الوقوع فى الزنا ، وسرّ الدخول ضمن هذه الأصناف مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك .

الجانب السابع : المراد بعدم علم الشمال ما تنفق اليمين، وسرّ الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك .

الجانب الثامن : المراد بذكر الله فى الخلوة، وسرّ الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك .

ودونك البيان :

أولا : مفهوم العدد فى قوله ﷺ : « سبعة يظلُّهم الله...»، وتحديد المراد بظلّه سبحانه الوارد فى الحديث :

والعدد فى قوله ﷺ : « سبعة يظلُّهم الله... » لا مفهوم له، بدليل أنَّه جاءتْ أحاديث أخرى تحمل فى طيَّاتها نفس هذا الثواب لأصناف أو لطوائف أخرى غير ما جاء فى هذا الحديث، منها:

قوله ﷺ : «من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» (١) ، « مَنْ أظلَّ رأس غازٍ أظلَّه الله يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه»،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب حديث جابر الطويل، وقصة أبى اليسر٤/ ٣٣٠١ ، ٣٣٠٢ رقم ٧٤ (٣٠٠٦) من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت مرفوعاً، والترمذى فى: السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء فى إنظار المعسر والرفق به ٣/ ٥٩٩ رقم (١٣٠٦) من حديث أبى هريرة مرفوعا بهذا اللفظ، وعقّب عليه قائلا : « وفى الباب عن أبى اليسر وأبى قتادة، وحذيفة ، وابن مسعود ، وعبادة ، وجابر ، وحديث أبى هريرة حديث حسن صحيح غريب منْ هذا =

«مَنْ جهَّز غازيا حتى يستقلَّ كان له مثل أجره »[١]، « مَنْ أعان مجاهدا فى سبيل الله، أو غارما فى عسرته أو مكاتبا فى رقبته أظلَّه الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه »[٢]، «التاجر الصدوق تحت ظلِّ العرش يوم القيامة»[٣] حتى بلغ بها الحافظ ابن حجر عشر خصال، انتقى منها سبعة بأسانيد جياد[٤].

وظلُّه سبحانه للأصناف الواردة فى الحديث، قيل: المراد به: كرامته وحمايته لهؤلاء، كما يقال: فلان فى ظلِّ الملك وقيل: المراد به ظل عرشه بدليل حديث سلمان: «سبعة يظلُّهم الله فى ظلِّ عرشه . . . »[٥] الحديث، والقول الثانى هو الراجح ـ وقد

= الوجه»، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الصدقات : باب إنظار المعسر ٢/٨٠٨ رقم (٢٤١٩) من حديث أبى اليسر مرفوعا بلفظ: « منْ أحبَّ أن يظلّه الله فى ظله، فلينظر معسراً أو ليضع له »، والدارمىُ فى : السنن : كتاب البيوع : باب فيمن أنظر معسرا ٢/٢٦١، ٢٦٢ من حديث ربعى أبى اليسر، وأبي قتادة به، وبنحوه، وأحمد فى : المسند ٢/٣٥٩ من حديث أبى هريرة مرفوعا .

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ١/ ٢٠، ٥٣، والحاكم فى: المستدرك: كتاب الجهاد : باب فضيلة إعانة المجاهد ٢/ ٨٩ كلاهما من حديث عمر بن الخطاب مرفوعا به، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الجهـاد : باب إعانة المجاهـدين ٥/ ٢٨٤ عن عمر بن الخطاب ، وعقّب عليه قائلا: « قلتُ: روى ابن ماجه طرفا من آخره ، رواه أحمـد ، وأبو يعلى، والبزار، وصالح بن معاذ شيخ البزار لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وإسناد أحمد منقطع، وفيه ابن لهيعة »، وأومأ إليه ابن حجر فى شرحه لحديث الباب : «سبعة يظلهم الله فى ظلّه . . . » ٢/ ١٤٤ قائلا : « فأما إظلال الغازى، فرواه ابن حبان وغيره من حديث عمر» وحكم عليه مع طائفة أخرى من الأحاديث بقوله :« وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد » .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣/ ٤٨٧، والحاكم فى : المستدرك : كتاب الجهاد : باب فضيلة إعانة المجاهد ٢/ ٨٩ ، ٩٠ كلاهما من حديث عبد الله بن سهل بن حنيف عن أبيه مرفوعا به، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد: كتاب الجهاد: باب إعانة المجاهدين ٥/ ٢٨٣ من حديث سهل بن حنيف بهذا اللفظ، وعقّب عليه بقوله: « رواه أحمد والطبرانى ، وفيه عبد الله بن سهل بن حنيف، ولم أعرفه وعبد الله بن محمد بن عقيل حديثه حسن »، وأومأ إليه ابن حجر فى شرحه لحديث الباب: « سبعة يظلهم الله في ظله . . . » ٢/ ١٤٤ قائلا : « وأما عون المجاهد فرواه أحمد، والحاكم من حديث سهل بن حنيف، وأما إرفاد الغارم، وعون المكاتب فرواهما أحمد والحاكم من حديث سهل بن حنيف المذكور » وحكم عليه ضمن طائفة أخرى من الأحاديث بقوله : « وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد » .

(٣) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب البيوع وغيرها : باب ترغيب التجار فى الصدق . . . ٢/ ٥٨٥ عن أنس بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: « رواه الأصبهانى وغيره » وأورده ابن حجر فى الفتح ضمن الطائفة التى انتقاها بأسانيد جياد ٢/ ١٤٤ قائلا : « وأما التاجر الصدوق فرواه البغوى فى شرح السنة من حديث سلمان، وأبو القاسم التيمى من حديث أنس » .

(٤) انظر: فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٢/ ١٤٤ .

(٥) الحديث أورده ابن حجر فى: فتح البارى ٢/ ١١٤، وعزاه إلى سعيد بن منصور عن سلمان، وقال عنه : « إسناده حسن ».

اعتمده ابن حجر وبه جزم القرطبى ـ لأنَّهم إذا كانوا يوم القيامة فى ظل عرشه سبحانه لزم أن يكونوا فى كنفه، وفى كرامته دون العكس[١] ؛ وأيضا لأن الأصل فى الكلام أن يكون على الحقيقة ، ولا يصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمانع أو قرينة، ولا مانع هنا ولا قرينة .

ثانيا : المراد بالإمام، وبالعادل، وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تعين الإمام على العدالة :

والمراد بالإمام: صاحب الولاية العظمى ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ ويلتحق به كل مَنْ وَلِى من أمور المسلمين فعدل فيه، ويؤيده رواية الإمام مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ـ رفعه : « إن المقسطين عند الله على منابر منْ نور عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم، وأهليهم وما ولُّوا»[٢].

والمراد بالعادل: الذى يتبع أمر الله بوضع كل شىء فى موضعه من غير إفراط ولا تفريط[٣].

وإنما قدمه فى الذكر لعموم النفع به ، إذ « ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع[٤] بالقرآن »[٥]، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ولأنَّه بصلاح الإمام تصلح الأمة وبفساده تفسد.

وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف : أنَّ منصب الإمامة له إغراء وبريق وسطوة وجبروت، فضلا عما يصنعه له أعوان وبطانة السوء من تزيين الفحشاء والمنكر، فإذا ما جاهد الإمام نفسه وخالف هؤلاء وأولئك ، وتحرَّى العدل فى كلِّ شىء ، فإنَّه يكون

---

(١) انظر : فتح البارى ٢/ ١٤٤.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل ، وعقوبة الجائر ٣/ ٤٥٨ رقم ١٨ (١٨٢٧)، والنسائى فى : السنن: كتاب آداب القضاء: باب فضيلة الحاكم العادل فى حكمه ٨/ ٢٢١ ، ٢٢٢، وأحمد فى: المسند ٢/ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٠٣ كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا، واللفظ لمسلم .

(٣) انظر: فتح البارى لابن حجر ٢/ ١٤٥.

(٤) يزع الله بسلطان: أى يكف ويمنع، يقال: وزَعَه، يَزَعه، وَزْعاً فهو وازع إذا كفّه ومنعه، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٢٠٨.

(٥) الأثر أورده علاء الدين المتقى الهندى فى: كنز العمال: كتاب الخلافة مع الإمارة: الباب الثانى فى الإمارة وتوابعها من قسم الأفعال: ترغيب الإمارة ٥/ ٧٥١ رقم (١٤٢٨٤) وعزاه إلى الخطيب عن عمر موقوفا به.

جديرا بالدخول ضمن هذه الأصناف ، والاستظلال فى ظلٍّ عرشه سبحانه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.

هذا وقد جاءت نصوص أخرى غير حديث الباب تحض الإمام على العدل وتبيِّن فضله إن التزم به وغيه وسوء عاقبته إن حـاد عنه وأعرض، منها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء : ٥٨]، وقوله ﷺ : « ما منْ أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا، لا يفكُّه إلا العدل، أو يوبقه الجور[١] »[٢]، « ما من رجل ولىَ عشرة إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه حتى يقضى بينه وبينهم »[٣]، «مَنْ طلب قضاء المسلمين حتى يناله، ثم غلب عدله جوره فله الجنَّة، ومَنْ غلب جوره عدله فله النار»[٤]، «ليس منْ والى أمَّة قَلَّتْ أو كثرت لا يعدل فيها إلا كبَّه الله تبارك وتعالى على وجهه فى النار»[٥]، «إنما

(١) أو يوبقه الجور: يعنى: يهلكه الجور، يقال: وَبَقَ، يَبِق ، وَوَبِق يَوْبَق فهو وَبِقٌ إذا هلك، وأوبقه غيره أى أهلكه فهو مُوبَق أى مُهْلَك. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٩١/٤ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٤٣١/٢ من حديث أبى هريرة مرفوعا به ، واورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب : كتاب القضاء وغيره: باب ترغيب مَنْ ولى شيئا من أمور المسلمين فى العدل إماما كان أو غيره، وترهيبه أن يشق على رعيته أو يجور. . . ١٧٤/٣ رقم (٢٩) وعزاه إلى البزار، والطبرانى فى الأوسط، ثم قال:« ورجال البزار رجال الصحيح »، وزاد فى رواية: «وإن كان مسيئا زيد غلاً إلى غلّه»، كما أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب فيمن ولى شيئا ٢٠٥/٥ وعزاه إلى البزّار، والطبرانى فى الأوسط، ثم عقب قائلا:« ورجال البزار رجال الصحيح».

(٣) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب القضاء وغيره: باب ترغيب من ولى شيئا من أمور المسلمين فى العدل أماما كان أو غيره. . . ١٧٤/٣ رقم (٣٠) ، وعزاه إلى الطبرانى فى: الكبير والأوسط عن ابن عباس وقال:« رجاله ثقات »، كما أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الخلافة: باب فيمن ولى شيئا ٢٠٦/٥، وعزاه إلى الطبرانى فى: الأوسط والكبير عن ابن عباس يرفعه وقال: «رجاله ثقات ».

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأقضية : باب فى القاضى يخطئ ٢٩٩/٣ رقم (٣٥٧٥) من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وأورده المنذرىُ فى: الترغيب والترهيب: كتاب القضاء وغيره: باب ترغيب منْ وَلى شيئا منْ أمور المسلمين فى العدل إماماً كان أو غيره. . . ١٧١/٣، ١٧٢ رقم (١٩) وعزاه إلى أبى داود منْ حديث أبى هريرة مرفوعا.

(٥) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب القضاء وغيره : باب ترغيب من ولى شيئا من أمور المسلمين فى العدل إماما كان أو غيره . . . ١٧٣/٣ من حديث معقل بن يسار q مرفوعا بهذا اللفظ وعقب عليه بقوله : «رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية عبد العزيز بن الحصين وهو واه »، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ولفظه قال: «ما من أحد يكون على شىء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه اللّه فى النار» وهو فى الصحيحين بغير هذا اللفظ.

وحديث الصحيحين الذى أشار إليه المنذرى هنا هو قوله ﷺ : «ما من عبد يسترعيه اللّه رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم اللّه عليه الجنة » . وقد أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب =

الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتّقى به، فإن أمر بتقوى وعدل فإن له بذلك أجرا، وإن أمر بغير ذلك فإن عليه وزرا»[١]، «صنفان من أمتى لن ينالهما شفاعتى: إمام ظلوم غشوم، وكل غالٍ مارق»[٢]، «رجلان من أمتى لا تنالهما شفاعتى: سلطان ظلوم غشوم، وآخر غالٍ فى الدين، مارق منه»[٣]، وفى رواية: «صنفان من أمتى لا تنالهما شفاعتى: سلطان ظلوم غشوم، وغالٍ فى الدين يشهد عليهم، ويتبرأ منهم»[٤]، «إن الله مع الحاكم ما لم يجر، فإذا جار وكله إلى نفسه»[٥].

«إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله عزّ وجلّ محسن يحب المحسنين...» إلخ[٦].

ولعل مما يعين الإمام على تحرِّى العدالة فى مهمته على ظهر هذه الأرض عدة عوامل، أهمها:

١ ـ أن يتذكر أنه مسئول بين يدى الله عزَّ وجل غدا عن كلٍّ واحد فى رعيته إذ يقول ﷺ: «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة

= الأحكام: باب من استرعى رعية فلم ينصح ٩/ ٨٠، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب استحقاق الوالى الغاش لرعيته النار ١/ ١٢٥، ١٢٦ رقم (٢٢٧، ٢٢٩)، وكتاب الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل... ٣/ ١٤٦٠، ١٤٦١ رقم (٢١، ٢٢)، كلاهما من حديث معقل بن يسار ﷺ مرفوعا.

(١) الحديث جزء حديث أورده البخارى فى: الصحيح: كتاب الجهاد: باب يُقاتَل من وراء الإمام ويتّقى به ٤/ ٦٠، ٦١، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب الإمام جنة يقاتل به من ورائه ويتّقى به... ٣/ ١٤٧١ رقم (٤٣)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد: باب فى الإمام يستجنّ به فى العهود ٣/ ١٨٨، ١٨٩ رقم (٢٧٥٧)، والنسائى فى: السنن: كتاب البيعة: باب ما يجب للإمام، وما يجب عليه ٧/ ١٥٥، ١٥٦، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا، واللفظ للنسائى.

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب فى أئمة الظلم والجور، وأئمة الضلالة ٥/ ٢٣٥ من حديث ابن عباس مرفوعا، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، ورجال الكبير ثقات».

(٣، ٤) الحديث بروايته أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب أئمة الظلم، والجور، وأئمة الضلالة ٥/ ٢٣٥، ٢٣٦ من حديث معقل بن يسار مرفوعا، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى بإسنادين فى أحدهما منيع، قال ابن عدىٍّ: له أفراد، وأرجو أنّه لا بأس به، وبقية رجال الأول ثقات».

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الأحكام: باب ما جاء فى الإمام العادل ٣/ ٦١٨، رقم (١٣٣٠)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الأحكام: باب التغليظ فى الحيف والرشوة ٢/ ٧٧٥ رقم (٢٣١٢) كلاهما من حديث عبد الله بن أبى أوفى مرفوعا لكن بلفظ: «القاضى» بدل: «الحاكم»، وعقب الترمذى على حديثه قائلا: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمران القطان».

(٦) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب فى العدل والجور ٥/ ١٩٧ من حديث أنس ﷺ مرفوعا، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات».

راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[١].

٢ـ وأن يتذكر عَواقب كلّ من العدل والجور فى الدنيا والآخرة . إذ بالعدل يدوم الملك، وبالجور يقوّض هذا الملك كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»[٢]، وكما جاء فى الحكم: « أحق الناس بدوام الملك وباتصال الولاية أقسطهم بالعدل فى الرعية وأخفهم عنها كَلا، ومؤونة »[٣] وكما جاء فى الأمثال : «مَنْ جعل العدل عدَّةً طالت به المدَّة »[٤].

وبالعدل يجاب الدعاء ، وبالجور يرد هذا الدعاء كما قال ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب : وعزَّتى وجلالى لأنصرنَّك ولو بعد حين »[٥].

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجمعة: باب الجمعة فى القرى والمدن ٢/ ٦، وكتاب الجنائز: باب قول النبى ﷺ : « يعذّب الميّتُ ببعض بكاء أهله عليه » إذا كان النوح مِنْ سنَّته ٢ / ١٠٠ معلقا، وكتاب الاستقراض: باب العبد راع فى مال سيِّده، ولا يعمل إلا بإذنه ٣/ ١٥٧، ١٥٨، وكتاب العتق: باب كراهية التطاول على الرقيق، وباب العبد راع فى مال سيده ٣ /١٩٦ ، ١٩٧، وكتاب الوصايا: باب تأويل قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ٤/ ٦، وكتاب النكاح: باب ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾، وباب المرأة راعية فى بيت زوجها ٧/ ٣٤، ٤١، وكتاب الأحكام: باب قول الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ٩/ ٧٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل ٣/ ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ رقم (٢٠)، وأبو داوُد فى: السنن: كتاب الخراج والإمارة والفىء: باب ما يلزم الإمام مِنْ حقّ الرعيَّة ٣/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ رقم (٢٩٢٨)، والترمذى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب ما جاء فى الإمام ٤/ ٢٠٨ رقم (١٧٠٥)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٨، ١١١، ١٢١ كلهم من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « وحديث ابن عمر حديث حسن صحيح».

(٢) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨/ ١٤٦ .

(٣ ، ٤) انظر : فصول فى الإمرة والأمير للشيخ سعيد حوّى ص١٣٧ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى: السُّنن: كتاب صفة الجنة: باب ما جاء فى صفة الجنَّة ونعيمها ٤/ ٦٧٢، ٦٧٣ رقم (٢٥٢٦) ، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الصيام: باب فى الصائم لا ترد دعوته ١/ ٥٥٧ رقم (١٧٥٢) كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، وعقَّب الترمذى على حديثه قائلا: « هذا حديث ليس إسناده بذاك القوىّ ، وليس هو عندى بمتصل ، وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر ، عن أبى مدلَّه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ » ، والإسناد الآخر الذى يشير إليه الإمام الترمذى ذكرناه آنفا عن ابن ماجه.

وبالعدل تملك سرائر الرعية، ويكون الصدق فى النصيحة، وبالجور تملك الأجساد فقط، ويكون التملق والنفاق، فقد قالوا: «مَنْ قام من الملوك بالعدل والحق ملك سرائر رعاياه، ومَنْ قام فيهم بالجور والقهر لم يتملك إلا الأجساد، ولم ير إلا المتصنع، والقلوب عليه مختلفة، فإن السرائر تطلب مَنْ يتملكها بالإحسان»(١).

وبالعدل تكون المحبة من الله والراحة يوم القيامة، وبالجور يكون البغض من الله والتعب فى هذا اليوم كما جاء فى حديث الباب: « سبعة يظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمام عادل . . .»، وحديث: « ما من أمير عشرة إلا يؤتى يوم القيامة مغلولا . . .»(٢).

وبالعدل تكون الجنَّة، وبالجور تكون النار: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»(٣).

وبالعدل تكون شفاعته ﷺ، وبالجور يكون الحرمان من هذه الشفاعة: « رجلان من أمتى لا تنالهم شفاعتى، إمام ظلوم غشوم . . .»(٤).

وبالعدل تكون المعية والعون والمدد الربانى، وبالجور يكون الخذلان والترك إلى النفس: « إن الله مع الحاكم ما لم يجر . . .»(٥).

٣ـ وأن يديم النظر والسماع لأخبار السلف، وكيف كان حرصهم على العدل، وتحريهم له، واهتمامهم به، كما فى سيرة الخلفاء الراشدين وسيرة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وأمير المؤمنين هارون الرشيد، وعماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى، وغيرهم وغيرهم فإنها غاصَّة بالكثير النافع فى هذا الباب الذى يحمل على الاقتداء والتأسى أو على الأقل يحمل على معنى المحاكاة والتشبُّه.

---

(١) انظر: فصول فى الإمرة والأمير للشيخ سعيد حوَّى ص ١٣٨.

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٩٨.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصَّحيح: كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها: باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنَّة، وأهل النار ٤/ ٢١٩٧، ٢١٩٨ رقم ٦٣ (٢٨٦٥)، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٦٢ كلاهما من حديث عياض بن حمار المجاشعى مرفوعا.

(٤ ـ ٥) الحديثان سبق تخريجهما ص ٩٩.

ثالثا : المراد بنشأة الشابِّ فى عبادة الله، وسرِّ الدخول ضمن هذه الأصناف مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على النشأة فى عبادة الله :

والمراد بنشأة الشَّابِّ فى عبادة الله: أن فطرته بقيتْ سليمةً لم تدنسها المعصية ولم تفسدها الأهواء، والشهوات ، حتى أفنى شبابه ونشاطه فى عبادة الله.

وسرُّ دخوله ضمن هذه الأصناف: أن الشباب مظنَّة غلبة الشهوة لما فيه من قوَّة الباعث على متابعة الهوى، فإذا لازم العبادة مع ذلك كان هذا دليلا على المجاهدة، وغلبة التقوى، واستحق أن يكافأ بالدخول ضمن هذه الأصناف[١].

هذا وقد وردتْ نصوص أخرى فى فَضْلِ النشأة فى عبادة الله نذكر منها:

قوله ﷺ : « إن اللَّه عزَّ وجلَّ ليعجبُ من الشَّابِّ ليستْ له صبوة[٢] »[٣]، «ما منْ ناشئ ينشأ فى العبادة حتى يدركه الموت إلا أعطاه الله أجر تسعة وتسعين صديقاً»[٤]، «مَنْ شاب شيبة فى الإسلام كانتْ له نورا يوم القيامة»[٥]، «مَنْ عمَّره الله تبارك وتعالى أربعين سنة فى الإسلام صرف الله عنه أنواعا من البلايا: الجزام، والبرص، وحنق الشيطان[٦]، ومَنْ عمَّره الله خمسين سنة فى الإسلام ليَّن الله عليه الحساب ـ وفى رواية: هوَّن الله عليه الحساب يوم القيامة ـ ومَنْ عمَّرهُ الله ستِّين سنة فى

---

(١) انظر: فتح البارى لابن حجر ٢/ ١٤٥ بتصرف.

(٢) ليست له صبوة: يعنى: ميل إلى الهوى. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/ ٢٥٢.

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٤/ ١٥١، وأبو يعلى فى: المسند ٣/ ٢٨٨ رقم (١٧٤٩)، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب فيمن لا صبوة له، ومَنْ ينشأ فى العبادة ١٠/ ٢٧٠ وعقب عليه بقوله: « رواه أحمد وأبو يعلى، والطبرانى، وإسناده حسن».

(٤) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب فيمن لا صبوة له، ومَنْ ينشأ فى العبادة ١٠/ ٢٧٠ من حديث أبى أمامة، وعقب عليه بقوله:« رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير بنحوه، وفيه يوسف بن عطية الصفَّار وهو ضعيف جدا».

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب فضائل الجهاد ٤/ ١٧٢ ،١٧٣ رقم (١٦٣٤) من حديث كعب ابن مرة، ورقم (١٦٣٥) من حديث عمرو بن عبسة وقال:«هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائى فى: السُّنن: كتاب الجهاد: باب ثواب مَنْ رمى بسهم فى سبيل الله عزَّ وجلَّ ٦/ ٢٦ ـ ٢٨ رقم (٣١٤٢، ٣١٤٤ ،٣١٤٥) من حديث عمرو بن عبسة وكعب بن مرَّة، وأحمد فى: المسند ٤/ ١١٣ ، ٣٨٦ من حديث عمرو بن عبسة.

(٦) حنق الشيطان: يعنى غيظه، وحقده. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ٢٦٥.

الإسلام رزقه الله الإنابة إليه بما يحبُّ الله، ومَنْ عَمَّرَهُ الله سبعين سنة فى الإسلام أحبَّه أهل السَّماء وأهل الأرض، ومَنْ عمَّره الله ثمانين سنة فى الإسلام محى الله سيئاته، وكتب حسناته ـ وفى رواية: كتب الله حسناته، ولم يكتب سيئاته ـ ومَنْ عمَّره الله تسعين سنة فى الإسلام غفر الله له ذنوبه، وكان أسير الله فى أرضه، وشفيعا لأهل بيته يوم القيامة ـ وفى رواية : وشفع فى أهل بيته يوم القيامة »[١] إلى غير ذلك من النصوص.

ويساعد الشاب على النشأة فى عبادة الله أو فى طاعته أمور، نذكر منها :

١ـ صفاءُ المحضن القريب ونعنى به: البيت، والمحضن البعيد ونعنى به: المدرسة والمجتمع ، بحيث لا يرى الشاب، ولا يسمع، ولا يشم، ولا يلمس، ولا يتذوق إلا الإسلام، والإسلام وحده، ولعل هذا هو المفهوم مِنْ قوله ﷺ : «ما مِنْ مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجسانه، كما تنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسُّون فيها مِنْ جَدْعاء. . .» الحديث [٢]، وقوله: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك إمَّا أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحا خبيثة»[٣].

---

(١) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب التوبة: باب فيمن طال عمره مِنَ المسلمين ١٠/٢٠٥ من حديث أنس بن مالك ، وعزاه إلى البزَّار قائلا: « رواه البزار بإسنادين ، ورجال أحدهما ثقات».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبىُّ فمات ٢/١١٨ ، ١١٩، وكتاب التفسير: سورة الروم: باب ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ٦/١٤٣، وكتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٨/١٥٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب القدر : باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. . . ٤/٢٠٤٧ ـ ٢٠٤٩ رقم (٢٦٥٨) ، وأبو داود فى: السنن :كتاب السنة: باب فى ذراريِّ المشركين ٥/٨٦ ــ ٨٨ ، والترمذى فى: السنن: كتاب القدر: باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ٤/٤٤٧ رقم (٢١٣٨)، وأحمد فى: المسند ٢/٢٣٣، ٢٥٣ ، ٢٧٥، ٢٨٢، ٣١٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٤١٠، ٤٨١ كلهم مِنْ حديث أبى هريرة مرفوعا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله:« هذا حديث حسن صحيح».

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب البيوع: باب فى العطار وبيع المسك٣/٨٢، وكتاب الذبائح: باب المسك ٧/١٢٥، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة ، والآداب: باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ٤/٢٠٢٦ رقم(٢٦٢٨)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يؤمر أن يجالس ٥/١٦٦، ١٦٧، وأحمد فى: المسند ٤/٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٨ كلهم مِنْ حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ مرفوعا إلا أبا داود فإنه عنده من حديث أنس بن مالك، وفى أوله زيادة:« مثل الذى يقرأ القرآن مثل الأترجه. . .» الحديث.

٢ـ وقيامُ هذين المحضنين بواجبهما فى: التوجيه والإرشاد، والمتابعة حتى يشبَّ الشبابُ عن الطَّوق، وتصبح لديهم الحصانة الكافية التى تحميهم منَ السقوط أو الانحراف: «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيَّته...» الحديث[1].

٣ـ ويقظةُ ولى الأمر أو السلطان فى متابعة هذين المحضنين فى القيام بواجبهما، وحمايتهما مِنْ أن يتطرق إليهما الشرُّ أو الفساد، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

٤ـ والتبصير بفوائد العبادة أو الطاعة منذ النشأة فى الدنيا والآخرة، إذ بها تكون الصِّحة والعافية فى الدنيا ولاسيَّما فى الكبر، وبها تكون الراحة والطمأنينة القلبية، والهداية والتوفيق، والنصر والتأييد، أمَّا فى الآخرة فتكون النجاة، والفوز بجنَّةٍ منَ الله ورضوان.

٥ـ والمطالعة الدائمة لسير الشباب المسلم المجاهد مِنْ عصر الصحابة إلى يومنا هذا، كسيرة ابن الزبير، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، والحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب، ويحيى بن معاذ الرازى، وابن أبى حاتم الرازى، والنووى، وابن تيمية وغيرهم... وغيرهم من شباب هذه الأمة المسلم المجاهد، فإن ذلك له دور كبير فى الاقتداء والتأسِّى أو على الأقل المحاكاة، والتشبُّه.

رابعا: المراد بتعلق القلب بالمساجد، وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك:

وتعلق القلب بالمساجد: كناية عن حبِّ المساجد حتى وإن كان الجسد خارجا عنها، ولولا أن الله قال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ما ترك هذه المساجد ولاخرج عنها.

وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف: أن الخروج من المسجد مظنَّة التعلق بالحياة الدنيا لما لها مِنْ بريق أخَّاذ، ونسيان المسجد الذى هو محل ذكر الله والدار الآخرة، فإذا ما بقى القلب معلقا بالمسجد حتى بعد الخروج منه كان ذلك دليلا على استحياء صاحبه

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٩٧، ٩٨.

من ربِّه، ومجاهدته لنفسه وهواه فاستحقَّ أن يكون ضمن هذه الأصناف فى ظلِّ عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

هذا وقد وردت نصوص أخرى فى فَضْل التعلق بالمساجد نذكر منها:

قوله ﷺ: « ما تَوطَّن رجل المساجد[١] للصَّلاة والذكر إلا تبشبش[٢] الله تعالى إليه كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم»[٣]، « المسجد بيت كل تقىٍّ، وتكفَّل الله لمن كان المسجد بيته بالروح، والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنَّة»[٤]، « أبشروا، هذا ربكم قد فتح بابا مِنْ أبواب السماء يباهى بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضةً، وهم ينتظرون أخرى»[٥]، إلى غير ذلك من النصوص.

ويساعد المسلم على أن يظلَّ قلبه معلقا بالمسجد وإن خرج منه بجسده عدة أمور، نذكر منها:

١- تذكر الخير الذى يعود عليه من وراء ارتباطه بالمسجد وتعلق قلبه به، إذ ورد أن «مَنْ أدمن الاختلاف إلى المساجد أصاب أخاً مستفادا فى الله عزَّ وجلَّ، وعلماً

---

(١) توطن رجل المساجد: أى: اتخذها وطنا بمعنى ألف الذهاب إليها، وتعلق قلبه بها بقصد العبادة من تسبيح وتحميد وتهليل وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك.

(٢) تبشبش: يعنى فرح. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٨٠.

(٣) الحديث: أخرجه ابن ماجه فى: السنن: كتاب المساجد والجماعات: باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة ٢/ ٢٦٢ من حديث أبى هريرة مرفوعا، وعقب عليه البوصيرى فى: مصباح الزجاجة ١/ ١٠٢ بقوله: «هذا إسناد صحيح»، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الصلاة: باب الترغيب فى لزوم المساجد والجلوس فيها ١/ ٢١٨ من حديث أبى هريرة مرفوعا وعقب عليه بقوله: « رواه ابن أبى شيبة، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبَّان فى صحيحيهما، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين».

(٤) الحديث أورده المنذرىُّ فى: الترغيب والترهيب: كتاب الصلاة: باب الترغيب فى لزوم المساجد والجلوس فيها ١/ ٢٢٠ ـ٢٢٢ مِن حديث أبى الدرداء، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الكبير، والأوسط، والبزار، وقال: إسناده حسن: وهو كما قال رحمه الله تعالى»، كما أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الصلاة: باب لزوم المساجد ٢/ ٢٢ وعزاه قائلا: « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، والبزار، وقال: إسناده حسن» ثم عقَّب على كلام البزار بقوله: « قلتُ: ورجال البزار كلهم رجال الصحيح».

(٥) الحديث آخرجه ابن ماجه فى: السُّنن: كتاب المساجد والجماعات: باب لزوم المساجد وانتظار الصَّلاة ١/ ٢٦٢ رقم (٨٠١) من حديث عبد الله بن عمرو قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع مَنْ رجع، وعقَّب مَنْ عقَّب، فجاء رسول الله ﷺ مسرعا قد حفزه النفس وقد حسر عن ركبتيه فقال: «أبشروا...» الحديث، وعقَّب عليه الشهاب البوصيرى فى: مصباح الزجاجة ١/ ١٠٢ بقوله: «هذا إسناد رجاله ثقات»، كما أخرجه أحمد فى: المسند ٢/ ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٨ من حديث عبد الله بن عمرو.

مستظرفا، وكلمة تدعوه إلى الهدى، وكلمة تصرفه عن الردى، وترك الذنوب حياءً وخشية، أو نعمة أو رحمة منتظرة »[١] هذا فى الدنيا، وفى الآخرة الجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة مع الاستظلال بظلّه سبحانه يوم لا ظل إلا ظلّه.

٢ـ دوام ذكر الله تعالى ومراقبته، فإن ذلك يُبْقى القلب معلقا بالمسجد الذى هو موطن الذكر، والضراعة.

٣ ـ النظر فى سيرة السلف وكيف كان تعلقهم بالمساجد وحبهم لها ، حتى لوخلّى بين أحدهم، وبين أن يقضى عمره كله فى المساجد لفعل من شدة التعلق والحبِّ.

خامسا : المراد بالتحابِّ فى الله اجتماعا وتفرقا ، وسرُّ الدخول ضمْن هذه الأصناف ، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن والعوامل التى تساعد على ذلك :

والمراد بالتحابِّ فى الله اجتماعا وتفرقا : أن هذا التحاب دام بينهما ولم يقطع بعارض دنيوى ، سواء اجتمعا حقيقة أم لا حتى فرَّق الموت بينهم[٢]، وفى ذلك يقول الشيخ مصطفى عمارة المعلق على أحاديث الترغيب والترهيب:

«رجلان تمكنتْ بينهما أواصر المحبة الصادقة ، والصداقة المتينة الخالصة لله مِنْ شوائب النفاق، وابتغاء النفع، لا يؤثر فيها غنى، ولا فقر، ولا تزيدها الأيام إلا وثوقا، وإحكاما، سرُّهما فى طاعة الله، وجهرهما فى مرضاته، ولا يتناجيان فى معصية،ولا يسرَّان منكرا، ولا تسعى أقدامهما إلى فسق أو فجور، تجمعهما رابطة الدين وحبُّه، ويفرقهما الغيرة على الدين والدفاع عن آدابه ، والذياد عن حرمته. لا لغرض زائل أو متاع من الدنيا قليل»[٣].

وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف: أن أسباب محبة الخلق لبعضهم سوى الله كثيرة، فإذا ما طرحها المحبُّ جانبا، وتعلق بالله وحده دلَّ على أنه قد جاهد نفسه وآثر ما يرضى الله ورسوله على ما يرضى نفسه وهواه وأقل تكريم لهذا الصنف من الناس ـ بعمله هذا ـ أن يكون فى ظلِّ عرش الرحمن يوم لا ظلَّ إلا ظله.

---

(١) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الصلاة: باب لزوم المساجد ٢/ ٢٢، ٢٣ من حديث الحسن بن على عن جدِّه، وعقب عليه قائلا:« رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه سعد بن طريف الإسكافى، وقد أجمعوا على ضعفه».

(٢) انظر: فتح البارى ٢/ ١٤٥ بتصرف.

(٣) انظر: التعليق على الترغيب والترهيب ١/ ٢١٧.

هذا وقد وردت نصوص أخرى فى فضل الحبِّ فى الله اجتماعا وتفرقا نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

وقوله ﷺ: « ثلاث مَنْ كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[(١)]، « إن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية، قال: هل لك عليه مِنْ نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله عزَّ وجلَّ قال: فإنِّى رسول الله إليك بأن الله قد أحبَّك كما أحببته فيه»[(٢)]، «مَنْ سرَّه أن يجد طعم الإيمان فليحب العبد لا يحبُّه إلا لله عزَّ وجلَّ»[(٣)]، « إن من الإيمان أن يحب الرجل رجلا لا يحبُّه إلا لله، من غير مالٍ أعطاه، فذلك الإيمان »[(٤)]، « أيها الناس اسمعوا وأعقلوا، واعلموا أن لله عزَّ وجلَّ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم، وقربهم من الله » فجثا رجل من الأعراب مِنْ قاصية الناس وألوى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، ناس من المؤمنين ليسوا بأنبياء، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء، والشهداء على مجالسهم وقربهم، انعتهم لنا، حلِّهم لنا ـ يعنى صفهم لنا، شكلهم لنا ـ فسرَّ وجه رسول الله ﷺ بسؤال الأعرابى، فقال رسول الله ﷺ : « هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب حلاوة الإيمان ١/ ١٠، ١١، باب مَنْ كره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار من الإيمان ١/ ١٢، وكتاب الأدب: باب الحبُّ فى الله ٨/ ١٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان خصال مَنْ اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان ١/ ٦٦ رقم (٦٧، ٦٨) ، والترمذى فى: السنن: كتاب الإيمان: باب منه ٥/ ١٥ رقم (٢٦٢٤) ، والنسائى فى: السنن: كتاب الإيمان : باب طعم الإيمان وباب حلاوة الإيمان ، وباب حلاوة الإسلام ٨/ ٩٤ ـ٩٧ رقم (٤٩٨٧ ـ ٤٩٨٩)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء ٢/ ١٣٣٨، ١٣٣٩ رقم (٤٠٣٣)، وأحمد فى:المسند ٣/ ١٠٣، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٨ كلهم مِنْ حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعا.

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٦٨ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٢/ ٢٩٨، ٥٢٠ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا .

(٤) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب الحبُّ فى الله ١٠/ ٢٧٤ من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات ».

وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون »[١].

وقوله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « حقَّتْ محبَّتى للمتحابين فىَّ، وحقَّت محبتى للمتواصلين فىَّ ، وحقت محبتى للمتناصحين فىَّ ، وحقَّت محبَّتى للمتباذلين فىَّ ، المتحابون فىَّ على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون ، والصدِّيقون، والشهداء»[٢]، إلى غير ذلك من النصوص. ويساعد على تحقيق هذا الحبِّ فى الله اجتماعا وتفرقا عدة عوامل، نذكر منها :

١ـ حسن الصلة بالله عز وجل، تلك التى تتمثل فى اتباع منهجه والنزول على حكمه، وإخلاص الوجهة له، فإن هذا لو تحقق فإنه سيكون سببا فى محبة الله للعبد، وإذا أحب الله عبدا حبب فيه ملائكته وعباده من أهل الأرض، وقد مرَّتْ بنا النصوص التى تشرح ذلك فى الحديث الماضى.

٢ـ رعاية الآداب الاجتماعية من التزاور، والسؤال عند الغياب وبذل النصيحة، وطلاقة الوجه، والهدية، والمواساة، وإظهار المحاسن، وإخفاء المعايب، والوفاء بحق الصحبة والعفو عن الهفوات والزلات ، وترك التكليف ، وإفشاء السلام وإجابة الدعوة ونحوها من حقوق الأخوة، فإن هذه الآداب إذا روعيتْ فإنها تثمر المحبة والمودَّة، وقد تقدمتْ النصوص التى تشرح ذلك فى الحديث الماضى.

٣ـ والتبصير بفوائد الحبِّ فى الله فى الدنيا والآخرة ، إذ من فوائده فى الدنيا الوحدة التى هى طريق القوة التى هى بدورها طريق العزة والسيادة، ومن فوائده فى الآخرة الظفر بجنة من الله ورضوان والنصوص التى قدمنا منذ قليل تشرح ذلك.

٤ـ النظر الدائم فى سيرة السلف ولاسيَّما الصحابة، وكيف كان الحب فى الله هو باعثهم ومحركهم بل أساس علاقتهم ببعضهم البعض.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٣٤٣ من حديث أبى مالك الأشعرى، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب المتحابين فى الله عز وجل ١٠/ ٢٧٦، ٢٧٧ وعقب عليه بقوله: «رواه كله أحمد والطبرانى بنحوه، ورجاله وثقوا ».

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٢٣٣، ومالك فى: الموطأ: كتاب الجامع: باب ما جاء فى المتحابين فى الله ﷻ ص ٦٨٠ رقم (١٧٣٥)، كلاهما من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعا.

٥ـ التذكير الدائم بفضل الحب فى الله، فإن النفس البشرية تنسى، وعلاج النسيان إنما يكون فى التذكير مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى]، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] .

سادسا : المراد بالخوف من الله المانع من الوقوع فى الزنا ونحوه وسر الدخول ضمن هذه الأصناف ، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك :

والمراد بالخوف من الله المانع من الوقوع فى الزنا ونحوه: اضطراب القلب اضطرابا يحمل على تقوى الله من فعل الطاعات وترك المحظورات والمنهيات [١].

وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف: أن الإعراض عن الوقوع فى الزِّنا مع توفر كل أسبابه ودواعيه من المنصب والجمال، والدعوة إلى النفس أو المراودة، إن دلَّ على شىء فإنما يدل على شدَّة مراقبة الله التى أثمرت الخوف منه سبحانه وتعالى، وحركتْ الجوارح بالامتناع، وأقل ما يكافأ به هذا الصنف من الناس أن يكون فى ظلِّ عرش الرحمن يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه [٢] .

هذا وقد وردت نصوص أخرى فى فضل الامتناع عن الوقوع فى محارم الله كالزنا ونحوه خوفا منه سبحانه وتعالى، ونذكر منها:

قوله تعالى عن يوسف مع امرأة العزيز حين راودته عن نفسه، وامتنع خوفا من الله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف] ، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن] ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات] .

وقولهﷺ : « يقول الله عزَّ وجلَّ: إذا أراد عبدى أن يعمل سيئةً فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها مِنْ أجلى فاكتبوها له حسنة، وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها

---

(١) انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى ٢/ ٥٧٦ ـ ٥٧٩ بتصرف كثير.
(٢) انظر : فتح البارى ٢/ ١٤٥، ١٤٦ بتصرف.

إلى سبعمائة »[١]، « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت، فقال: مايبكيك؟ قالت: لأن هذا عمل ما عملتُه، وما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله، فأنا أحرى، اذهبى فلك ما أعطيتك، ووالله ما أعصيه بعدها أبدا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: إن الله قد غفر للكفل. فعجب الناسُ من ذلك»[٢]، « يقول الله عز وجل: وعزَّتى لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين: إذا خافنى فى الدنيا أمَّنتُه يوم القيامة، وإذا أمننى فى الدنيا أخفتهُ فى الآخرة »[٣]، « يقول الله: أخرجوا من النار مَنْ ذكرنى أو خافنى فى مقام»[٤]، إلى غير ذلك من النصوص.

ويساعد على التحلِّى بهذا الخوف عدَّةُ عوامل، نذكر منها :

١ـ التذكير بأن الله يعلم ويرى، وأن ملائكته تحصى وتكتب، وأن كل شىء سيشهد حتى الجوارح، وأن الله كما هو غفورٌ رحيم فهو شديد العقاب : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴿٣﴾ ﴾ [الأنعام] ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيه شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** ﴿٥﴾ ﴾ [آل عمران] ، ﴿ **مَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴿١٨﴾ ﴾ [ق] ، ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] ، ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ**

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب حسن إسلام المرء ١/ ١٧، وكتاب الرقاق: باب مَنْ همَّ بحسنة أو بسيِّئة ٨/ ١٢٨، وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّه** ﴾ ٩/ ١٧٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت... ١/ ١١٧، ١١٨ رقم (٢٠٣ ـ ٢٠٨) ، والترمذى فى: السنن: كتاب التفسير: سورة الأنعام: باب منه ٥/ ٢٦٥ رقم (٣٠٧٣)، وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد فى: المسند ١/ ٢٢٧ ، ٣١٠، ٣٦١ ، ٢/ ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٣١٥، ٣١٧ ، ٤١١، ٤٩٨، ٣/ ١٤٩ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، وزاد مسلم رواية عن ابن عباس، كما زاد أحمد رواية عن ابن عباس، وأخرى عن أنس، وهذا لفظ البخارى كما فى كتاب التوحيد.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٦٥٧، ٦٥٨ رقم (٢٤٩٦) وقال : «هذا حديث حسن»، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب فى الخوف وفضله ٤/ ٢٥٨ من حديث ابن عمر مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « رواه الترمذى وحسنه، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد».

(٣) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب فى الخوف وفضله ٤/ ٢٦١ من حديث: أبى هريرة مرفوعا، وعقب عليه بقوله: « رواه ابن حبان فى صحيحه ».

(٤) الحديث أخرجه الحاكم فى: المستدرك: كتاب الإيمان: باب يقول الله: أخرجوا من النار ١/ ٧٠ من حديث أنس مرفوعا، وقال عنه الذهبى فى: التلخيص : «صحيح الإسناد».

لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [غافر] ، ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت] ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد] .

٢ـ التفكر فى عواقب الخوف من الله، وأنها تتمثل فى مغفرة الذنوب والأمن يوم الفزع الأكبر، والظفر بجنة من الله ورضوان، وقد مضى من النصوص ما ينطق بذلك.

٣ـ النظر فى سير الخائفين مِنْ ربِّهم من أبناء هذه الأمة أو من أبناء الأمم التى مضتْ، مثل قصة الكفل من بنى إسرائيل ـ التى ذكرنا آنفا ـ ومثل قصة المسرف على نفسه التى قصها علينا رسول الله ﷺ إذ قال : « كان رجل يسرف على نفسه لما حضره الموت، قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقونى، ثم اطحنونى، ثم ذرُّونى فى الريح، فوالله لئن قدر الله علىَّ ليعذبنِّى عذابا ما عذَّبه أحدا، فلما مات فعل به ذلك فأمر اللَّه الأرضَ فقالَ : اجمعى ما فيك ، ففعلتْ فإذا هو قائم فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب ـ أو قال: مخافتك ـ فغفَر له »[1] .

وفى رواية : « قال رجلٌ لم يعمل حسنةً قطُّ لأهله : إذا متُّ فحرِّقوه ، ثم ذرُّوا نصفه فى البرِّ ونصفه فى البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا به ما أمرهم. فأمر اللهُ البرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحر أن يجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلتَ هذا ؟ قال: مِنْ خشيتِك يا ربِّ، وأنت أعلمُ فغفر الله تعالى له »[2] .

فإن هذا وغيره من سير الخائفين يحمل النفس على الاقتداء والتأسِّى أو على الأقل على المحاكاة والتشبه.

سابعا : المراد بعدم علم الشمال ما تنفق اليمين، وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك:

والمراد بعدم علم الشمال ما تنفق اليمين : المبالغة فى الإسرار والتخفِّى بالصدقة،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأنبياء: باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٤، ٢١٥ من حديث حذيفة، وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة مرفوعا، ومسلم فى: الصحيح: كتاب التوبة: باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنَّها سبقتْ غضبه ٤/ ٢١٠٩ ـ ٢١١١ رقم (٢٤ ـ ٢٧) من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى مرفوعا، والنسائى فى: السنن: كتاب الجنائز: باب أرواح المؤمنين ٤/ ١١٣ رقم (٢٠٨٠) من حدث حذيفة مرفوعا، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب ذكر التوبة ٢/ ١٤٢١ رقم (٤٢٥٥) من حديث أبى هريرة مرفوعا.

(٢) انظر التخريج السابق .

بحيث إن شماله مع قربها مِنْ يمينه وتلازمهما ، لو تصور أنها تعلم لما علمت ما فعلت اليمين لشدة إخفائها، فهو على هذا من مجاز التشبيه، ويحتمل أن يكون ذلك مِنْ مجاز الحذف ، والتقدير : حتى لا يعلم ملك شماله أو مَنْ على شماله من الناس ما تنفق يمينه، وقيل: إن المراد بالشمال النفس وأنَّه مِنْ باب تسمية الكامل باسم الجزء، والمعنى: حتى لا تعلم نفسه ما تنفق نفسه[(١)] ، وجاء في رواية مسلم: « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله »، بيد أن العلماء قالوا: إن هذا قلب للحديث؛ لأن السنة المعهودة في الصدقة إعطاؤها باليمين، على أن مسلما قد انفرد بها مِنْ دون سائر الأئمة فيترجح ما عندهم على ما عنده[(٢)].

وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف : أن النفس تميل إلى إبراز عملها، لاسيَّما الصدقة باعتبار أن المال شقيق الروح كل هذا لتُحْمِد، فإذا ما جاهد صاحبها، وحملها على التخفي والاستتار بالصدقة دَلَّ على أنَّه يريد بعمله وجه الله، وأقل مكافأة لهذا الصنف من الناس أن يكون في ظل عرش الرّحمن يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.

هذا وقد وردت نصوص أخرى في فضل إخفاء الصدقة، نذكر منها:

قولهﷺ : « إن الملائكة قالت : يارب ، هل مِنْ خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال: نعم، الحديد، قالت: فهل أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت : فهل أشد من النار؟ قال: نعم، الماء، قالت: فهل أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالتْ: فهل أشد من الريح، قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله»[(٣)]، «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السرِّ تطفئ غضب الربِّ، وصلة الرَّحم تزيد في العمر»[(٤)]، « ثلاثة يحبُّهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبُّهم : فرجل أتى

---

(١) انظر: فتح الباري ٢/ ١٤٧ بتصرف.

(٢) انظر: فتح الباري ٢/ ١٤٦ بتصرف

(٣) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٣/ ١٢٤، والترمذي في: السنن: كتاب تفسير القرآن: باب منه ٥/ ٤٥٤، ٤٥٥ رقم (٣٣٦٩) كلاهما مِنْ حديث أنس مرفوعا، وعقب الترمذي عليه قائلا:« هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه»، وأورده المنذريُّ في: الترغيب والترهيب: باب الترغيب في صدقة السر ٢/ ٣٠، وعقب عليه بقوله : « رواه الترمذي، واللفظ له ، والبيهقيُّ وغيرهما، وقال الترمذي: حديث غريب» كما أورده الحافظ ابن حجر في: فتح الباري ٢/ ١٤٧ قائلا: « وفي مسند أحمد مِنْ حديث أنس بإسناد حسن مرفوعا: إن الملائكة قالت . . .».

(٤) الحديث أورده المنذريُّ في: الترغيب والترهيب: باب الترغيب في صدقة السر ٢/ ٣٠ من حديث أبي أمامة مرفوعا، وعقب عليه بقوله:« رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن».

قوما فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه فمنعوه، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرًا لا يعلم بعطيته إلا الله والذى أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحبَّ إليهم مما يُعْدَل به فوضعوا رؤوسهم، فقام يتملقنى[1] ، ويتلو آياتى، ورجل كان فى سريَّةٍ فلقى العدوَّ فهزموا، فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزانى، والفقير المختال[2]، والغنى الظلوم [3] » [4] ، إلى غير ذلك من النصوص.

ولعلَّ مما يساعد على الإخلاص والإسرار بالصدقة ما يلى:

١ـ أن تتذكر عواقب الإسرار بالصدقة فى الدنيا والآخرة على النحو الذى شهدتْ به النصوص المذكورة آنفا.

٢ـ وأن تتذكر كذلك عواقب الرياء بها لا لشىء إلا لحظِّ النفس، إذ جاء فى الحديث: «أن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة: رجل استشهد فأُتى به فعرَّفه نعمته فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدتُ قال: كذبت، ولكنَّك قاتلت لأن يقال: جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النَّار، ورجل تعلم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: تعلمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأت القرآن، قال: كذبتَ، ولكنَّك تعلمت العلم ليقال: إنك عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النَّار، ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المالِ كلِّه ، فأتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال :

---

(١) يتملقنى: أى يزيد فى التودُّد، والدعاء، والتضرع فوق ما ينبغى. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/٧.

(٢) الفقير المختال هو : الذى لا يملك شيئا ومع ذلك يتكبر ويتجبَّر على الناس.

(٣) الغنى الظلوم هو: الثرى الذى يتعدى على عباد الله ويُسىء المعاملة طغيانا وبغيا.

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السُّنن: كتاب صفة الجنة: باب ما جاء فى كلام الحور العين٤/٦٩٨ رقم (٢٥٦٨)، والنسائى فى: السنن: كتاب الزكاة: باب ثواب مَنْ يعطى ٥/ ٨٤ رقم (٢٥٧٠)، وأحمد فى: المسند ٥/١٥٣، ١٧٦ كلهم من حديث أبى ذر ﷺ مرفوعا، وعقب عليه الترمذى بقوله:« حديث صحيح»، وأورده المنذرىُّ فى: الترغيب والترهيب: باب الترغيب فى صدقة السِّرِّ ٢/ ٣٢، ٣٣ من حديث أبى ذر وعقب عليه بقوله: « رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه، واللفظ لهما إلا أنَّ ابن خزيمة لم يقل: فمنعوه، والنسائى، والترمذى ذكره فى باب كلام الحور العين وصححه ،وابن حبَّان فى صحيحه إلا أنَّه قال فى آخره: « ويبغض الشيخ الزانى، والبخيل والمتكبر»، والحاكم وقال : « صحيح الإسناد».

ما تركتُ مِنْ سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه ثم ألقى به فى النَّار»[١].

٣ـ وأن نديم النظر فى سيرة السَّلف، وكيف كان حاملهم على العمل، ولاسيَّما الصدقة مرضاة الله وحده على النحو الذى ورد فى سورة الإنسان : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾** ﴾ الآيات [الإنسان] ، فإن ذلك يؤثر فى النفس فيحملها على الاقتداء والتأسِّى أو على الأقل المحاكاة والتشبه.

ثامنًا : المراد بذكر الله فى الخلوة، وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف، مع بعض النصوص الأخرى الواردة فى هذا الشأن، والعوامل التى تساعد على ذلك :

والمراد بذكر الله فى الخلوة: استشعار اطلاعه ومراقبته، أو الثناء عليه سبحانه باللسان، أو هما معا، استشعارًا وثناءً يؤديان إلى فيضان العينين بالدمع [٢].

وسرُّ الدخول ضمن هذه الأصناف: أن الخلوة مدعاة إلى قسوة القلب والجرأة على المعصية، فإذا ما جاهد العبد نفسه، وراعى حرمات الله فى الخلوة كان ذلك دليلا على خشيته مِنْ ربِّه، وأقل ما يكافأ به هذا الصنف من الناس أن يكون فى ظلِّ عرش الرحمن يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.

هذا وقد وردتْ نصوص أخرى فى فضل ذكر الله فى الخلوة، نذكر منها :

قوله ﷺ : « مَنْ ذكر الله ففاضتْ عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذِّبه الله تعالى يوم القيامة»[٣] ، « عينان لا تمسهما النار : عينٌ بكتْ من

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول.

(٢) انظر : فتح البارى ٢/ ١٤٧ بتصرف.

(٣) الحديث أخرجه الحاكم فى: المستدرك: كتاب التوبة والإنابة : باب لا يلج النار أحدٌ بكى من خشية الله ٤/ ٢٦٠ من حديث أنس بن مالك مرفوعا، وعقب عليه قائلا : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، وأقره الذهبى على ذلك فى: التلخيص، وأورده الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ١/ ١٤٧ وعزاه إلى الحاكم.

خشية الله ، وعين باتتْ تحرس فى سبيل الله »[١] ، « ثلاثة لا ترى أعينهم النَّار: عين حرستْ فى سبيل الله، وعين بكتْ مِنْ خشية الله، وعينٌ كفَّتْ عن محارم الله »[٢] ، «ليس شىء أحب إلى الله مِنْ قطرتين، وأثرين: قطرة دموع منْ خشية الله، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله، وأما الأثران : فأثر فى سبيل الله، وأثر فى فريضة من فرائض الله عزَّ وجلَّ»[٣]، « إذا اقشعرَّ جلد العبد مِنْ خشية الله تحاتتْ عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقها »[٤]، إلى غير ذلك من النصوص.

ولعل مما يعين المسلم على ذكر الله والبكاء فى الخلوات ما يلى:

١ـ استحضار أن الله يرى ويسمع ، ويعلم كل شىء حتى السرَّ بل ما هو أخفى من السِّر: ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)** ﴾ [الملك] ، ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ [الحديد : ٤]، ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤)** ﴾ [العلق].

٢ـ التأمل فى نعم الله التى تغمرنا وتحيط بنا نعلم منها ما نعلم، ونجهل منها ما نجهل : ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم : ٣٤]، ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣]، ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فى فضل الحرس فى سبيل الله ٤/ ١٧٥ رقم (١٦٣٩) من حديث ابن عباس مرفوعا، وعقب عليه بقوله:« وفى الباب عن عثمان وأبى ريحانة، وحديث ابن عباس حديث حسن غريب لا نعرفه إلا مِنْ حديث شعيب بن رُزيق»، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب فى البكاء من خشية الله تعالى ٤/ ٢٢٩ من حديث ابن عباس، وعزاه إلى الترمذى.

(٢) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب فى البكاء مِنْ خشية الله تعالى ٤/ ٢٣٠ من حديث معاوية بن حَيدة مرفوعا، وعقَّب عليه بقوله:« رواه الطبرانى، ورواته ثقات إلا أن أبا حبيب العنقرى لا يحضرنى الآن حاله».

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى: السُّنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فى فضل المرابط ٤/ ١٩٠ رقم (١٦٦٩) من حديث أبى أمامة مرفوعا وعقب عليه بقوله: « هذا حديث غريب »، وأورده المنذرى فى الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب فى البكاء مِنْ خشية الله تعالى ٤/ ٢٣١ وعزاه إلى الترمذى .

(٤) الحديث أورده المنذرىُّ فى: الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب فى البكاء مِنْ خشية الله تعالى ٤/ ٢٣٤ من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ مرفوعا، وعقب عليه بقوله: « رواه أبو الشيخ ابن حبَّان فى الثواب ، والبيهقى واللفظ له » .

٣ـ استحضار أن ملائكته سبحانه تكتب وتحصى ، وأن كل شيء سيشهد علينا حتى الجوارح والجلود كما سبقت بذلك الآيات.

٤ـ النظر فى سير وأحوال السلف ، وكيف كانوا ملازمين للذكر ومواظبين عليه فى الليل وفى النهار، وفى كل الظروف وساير الأحايين، فإن ذلك مدعاة إلى الاقتداء والتأسى أو على الأقل المحاكاة والتشبُّه.

ما يستفاد من الحديث دعويا وتربويا:

ويستفاد من الحديث دعويا وتربويا فوائد عدَّة، نذكر منها:

١ـ فضيلة الإمام العادل وما فى معناه مِنْ كلِّ صاحب إمارة أو ولاية ، وضرورة تحلِّى مَنْ لم يكن كذلك بالعدالة لما لها منْ فوائد فى الدنيا والآخرة.

٢ـ فضيلة الشاب الناشئ فى عبادة الله ، وضرورة تنشئة الشباب إن لم يكونوا كذلك على الطاعة والعبادة لما فى هذه الطاعة والعبادة من فوائد جمَّة ومنافع كثيرة فى الدنيا والآخرة.

٣ـ فضيلة المسلم المعلَّق قلبه بالمساجد ، وضرورة ربط الناس إن لم يكونوا كذلك بالمساجد، فإنها مصنع تخريج الرجال وإعداد الروَّاد والقادة: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)** ﴾

[النور]

٤ـ فضيلة الحبِّ فى الله، والبغض فى الله، وتنشئة المسلمين إن لم يكونوا كذلك على هذا الخلق، لما يؤدى إليه من ترابط القلوب ووحدة الصفِّ مِنْ ناحية، وكسب رضوان الله وثوابه من ناحية أخرى.

٥ـ فضيلة العفاف خوفا من الله، وطمعا فى مرضاته، وتنشئة الأمة على هذا الخلق؛ لما يؤدى إليه من الترابط والتماسك الاجتماعى ، من ناحية ، وبتر الرذيلة والقضاء عليها وهى لا تزال فى مهدها من ناحية أخرى.

٦ـ فضيلة صدقة السِّرِّ، وضرورة تنشئة المسلمين على تجنب الرياء بالعمل طمعا فى حظّ نفس أو إرضاء بشر.

٧ـ فضيلة ذكر الله فى الخلوات، لما يدل عليه هذا الذكر من خشية الله ومراقبته، وضرورة التنشئة على ذلك حتى يكون الفوز فى الدنيا والآخرة.

٨ـ أهمية الترغيب والمكافأة فى الدعوة والتربية ، ولاسيَّما إذا كان هذا الترغيب وهذه المكافأة فى أوقات الشدائد والمحن ، فإن هذا مما يحرِّك النفوس ، ويجعلها تستعذب كلَّ صعب وشاقٍّ وصولا إلي المثوبة أو المكافأة.

الحديث الخامس والعشرون

قال رسول اللّه ﷺ :

« كلُّ ميّت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل اللّه ، فإنّه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمّن فتنة القبر » .

تخريجه :

الحديث أخرجه أبو داوُد فى: السنن: كتاب الجهاد: باب فى فضل الرباط ٣/ ٢٠ رقم (٢٥٠٠) .

والترمذى فى : السنن: كتاب فضائل الجهاد: باب فضل من مات مرابطا ٤/ ١٦٥ رقم(١٦٢١) .

وأحمد فى : المسند ٦/ ٢٠ كلهم من حديث فضالة بن عبيد مرفوعا، وعقب الترمذى على حديثه قائلا: « وفى الباب عن عقبة بن عامر، وجابر، وحديث فضالة حديث حسن صحيح » .

وقد أخرج رواية عقبة بن عامر التى أشار إليها الترمذى الإمام الدارمى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب فضل من مات مرابطًا ٢/ ٢١١، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٥٠ ، ١٥٧ .

معناه :

الصراع بين الحقّ والباطل قديم ، وقد مضتْ سنته سبحانه فى خلقه أن يجعل للحقّ حراسًا وحماةً فى كل زمان ومكان ، يصونونه من كيد الكائدين ، وعبث العابثين وإلا لطمست معالم هذا الحق، ودرست آثاره ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة : ٢٥١]، ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾ [الحج : ٤٠] ، « مثل القائم على حدود اللّه والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم،

فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»(١).

وكانت الأمة المسلمة ـ آخر الأمم وجودا ـ هى المكلفة بمهمة وواجب الحماية والحراسة منذ أخرجت للناس ، وحتى قيام الساعة : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [الحج : ٧٨] .

ولما كانت هذه المهمة ليست بالأمر الهيّن ، ولا بالأمر اليسير، نظرا لتربص الباطل وشدة كيده ومكره ، مع طول الطريق ، وتعدد العقبات والمعوّقات ، لما كانت هذه المهمّة كذلك، أجزل اللّه عز وجل الأجر والمثوبة للقائمين بها ليس فى الحياة الدنيا فحسب، بل حتى فى البرزخ بعد الموت ، لئلا يكون هناك إعراض أو نكوص .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن تصوير صادق ودقيق لما نقول ؛ إذ يخبر النبىّ ﷺ فيه: أن كل ميّت يختم على عمله بمجرد موته ولا يضاف إليه شىء بعد ذلك إلا من مات مرابطا فى سبيل اللّه حماية للحقّ، ودفاعا عنه، فإنّ اللّه عزّ وجل ينمى له هذا العمل بمعنى يباركه ويزيد فيه إلى يوم القيامة، فضلا عن أنه يؤمنه الفتنة فى القبر وعند السؤال.

وحتى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح ، فإننا سنعرض له من الجوانب التالية:

الجانب الأول : ماهية الرباط، وعلاقته بالجهاد.

الجانب الثانى : فوائد الرباط وثمراته فى الدنيا والآخرة.

الجانب الثالث : سر هذه الفوائد وتلك الثمرات .

الجانب الرابع : ماهية فتنة القبر وسبيل النجاة .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الشركة: باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه ٣/ ١٨٢ وكتاب الشهادات: باب القرعة فى المشكلات ٣/ ٢٧٣، والترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب منه ٤/ ٤٧٠ رقم (٢١٧٣) ، وأحمد فى: المسند ٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤، كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعا، واللفظ للبخارى، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح» .

الجانب الخامس : بعض النصوص الأخرى، الواردة فى فضل الرباط.

الجانب السادس : العوامل التى تساعد على غرس روح الرباط فى نفس المسلم.

ودونك البيان:

أولا: ماهية الرباط وعلاقته بالجهاد :

لغة:

الرباط فى أصل وضعه اللغوى اسم لما يربط به الشىء أى يشد، تقول: هذا رباط الدابّة أى الحبل الذى تشد به إلى الوتد، وهذا رباط النفس أى الحبل الذى يحميها من المعاصى، ويكفها عن المحارم. كما يطلق على : الملازمة، تقول : رابطتُ بالمكان : أى لازمتهُ ولم أبرحه [١] .

شرعا :

أمّا ماهية الرباط شرعا فإنها تدور حول معنيين :

أ ـ أحدهما خاص : وهو المقام فى الثغور التى بين المسلمين والكافرين حماية للمسلمين من خطر مداهمة هؤلاء الكافرين ، يقول الحافظ ابن حجر : «الرباط بكسر الراء، وبالموحدة الخفيفة: ملازمة المكان الذى بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم» [٢] .

ويقول ابن الأثير: « الرباط فى الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها » [٣] .

ب ـ والآخر عام : وهو ملازمة أخذ الأهبة والاستعداد للجهاد على كلّ حال فيشمل الرباط بمعناه الخاص، كما يشمل البعد عن المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، ويشمل كذلك فعل الطاعات من أول لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق، وما بين ذلك من الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

---

(١) انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/ ٦٠ بتصرف .

(٢) انظر: فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٦/ ٨٥ .

(٣) انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/ ٥٩ ، ٦٠ .

وقال ﷺ: « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»(١)، «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . . .»(٢)، « من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده ؛ فإن شبعه ، وريه ، وروثه ، وبوله فى ميزانه يوم القيامة »(٣).

ولعل المعنى العام هو المراد أو المقصود فى الحديث تمشيا مع نصوص وروح الإسلام القاضيين بأن الأمة الإسلامية أمّة الجهاد والمرابطة إلى قيام الساعة .

وعلاقة الرباط بالجهاد هى علاقة الترادف أو التوافق، فكل واحد منهما مرادف للآخر ، وموافق له ، حتى إنه ما يذكر الجهاد حتى يخطر الرباط بالبال ، وما يذكر الرباط حتى يخطر الجهاد بالبال، إلا أن يراد بالجهاد معناه الخاص، وهو القتال، فيكون علاقة الرباط بالجهاد علاقة مقدمة بالنتيجة .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب الطهارة: باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ١/ ٢١٩ رقم ٤١ (٢٥١)، والترمذى فى : السنن : كتاب الطهارة : باب ما جاء فى إسباغ الوضوء ١/ ٧٢ ـ ٧٤ رقم (٥١ ، ٥٢) وقال عقيبه: « وفى الباب عن على وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وعَبيدة ـ ويقال: عُبيدة ـ بن عمرو، وعائشة، وعبد الرحمن بن عائش الحضرمى وأنس ، وحديث أبى هريرة فى هذا الباب حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى: السنن : كتاب الطهارة: باب الفضل فى إسباغ الوضوء ١/ ٨٩، ٩٠، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٠، ٣٠٣ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الجهاد: باب فضل رباط يوم فى سبيل الله ٤/ ٤٣ من حديث سهل بن سعد، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل الرباط فى سبيل الله عزّ وجل ٣/ ١٥٢٠ من حديث سلمان بلفظ : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان » ، والنسائى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب فضل الرباط ٦/ ٣٩ ، ٤٠ رقم (٣١٦٧ ، ٣١٦٨) من حديث سلمان، ورقم (٣١٦٩ ، ٣١٧٠) من حديث عثمان بن عفان ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب فضل الرباط فى سبيل الله ٢/ ٩٢٤ من حديث عثمان بن عفان ﷺ مرفوعا، وعقب عليه شهاب الدين البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٣/ ١٥٤ بقوله: «هذا إسناد ضعيف ، عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعفه أحمد، وابن معين، وابن المدينى، والنسائى ، وقال الحاكم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة، وقال ابن عبد البرّ: أجمعوا على ضعفه»، ثم نقل له طرقا أخرى تجبر هذا الضعف، وتجعل الحديث مقبولا يحتج به، وأحمد فى: المسند ١/ ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٥ من حديث عثمان بن عفان مرفوعا .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجهاد: باب من احتبس فرسا ٤/ ٣٤، والنسائى فى: السنن: كتاب الخيل: باب علف الخيل ٦/ ٢٢٥، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٧٤ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا واللفظ للبخارى ، وأخرج أحمد نحوه ٦/ ٤٥٨ من حديث أسماء بنت يزيد مرفوعا وهذا لفظه: «من ارتبط فرسا فى سبيل الله، وأنفق عليه احتسابا، كان شبعه، وجوعه، وريه ، وظمأه، وبوله، وروثه فى ميزانه يوم القيامة، ومن ارتبط فرسا رياء وسمعة كان ذلك خسرانا فى ميزانه يوم القيامة » .

ثانيا : فوائد الرباط وثمراته فى الدنيا والآخرة :

وللرباط فوائد وثمرات فى الدنيا والآخرة نذكر منها:

* أنّه أضمن الطرق لإرهاب الحاقدين والمتربصين بهذه الأمة ، قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠]، فيكون السلمْ، والسّلام، والأمن، والأمان.

* وأنّه أفضل السبل لإحقاق الحق وإبطال الباطل، قال تعالى: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)** ﴾ [الأنفال].

* وأنه مصدر العزّة والكرامة، أو العبودية الحقة لله وحده لا شريك له، فلا إكراه، ولا مثيرات، ولا إغراءات، ولا تحكم من العباد فى رقاب العباد، يقول ﷺ : «بعثت بين يدى السّاعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى»(١)، «اللهم انجز لى ما وعدتنى، اللهم انجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض» (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى [تعليقا] فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب ما قيل فى الرماح ، ويذكر عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ : « وجعل رزقى تحت ظلّ رمحى . . . » ٤ / ٤٩ ، وأحمد فى: المسند ٢ / ٥٠ ، ٩٢ من طريق أبى منيب الجرشى ، عن ابن عمر مرفوعا به ، وأورده الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ٦/ ٩٨ ، وعزاه إلى أحمد ، ثم عقّب عليه قائلا : « وأبو منيب لا يعرف اسمه ، وفى الإسناد عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف فى توثيقه ، وله شاهد مرسل بإسناد حسن ، أخرجه ابن أبى شيبة (المصنف : كتاب الجهاد : باب ما قالوا فيما ذكر من الرمّاح، واتخاذها ٢/ ٣٤٩، ٣٥٠) من طريق الأوزاعى عن سعيد بن جبلة، عن النبى ﷺ بتمامه »، بيد أنه يؤخذ على الحافظ ابن حجر قوله : عن سعيد بن جبلة عن النبى ﷺ بتمامه ، فإنه ـ كما فى المصنف ـ عن سعيد بن جبلة ، عن طاوس ، عن النبى ﷺ بتمامه ، ولعل طاوسًا سقط سهوا ، أو نسيانا ، وقد أخرج ابن ابى شيبة فى : المصنف ١٢ / ٣٥١ حديث ابن عمر ، كما عند أحمد إسنادا ومتنا .

(٢) الحديث جزء حديث طويل ، أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر، وإباحة الغنائم ٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٥ رقم (١٧٦٣) ، والترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنفال ٥/ ٢٦٩، ٢٧٠ رقم (٣٠٨١)، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٠ ـ ٣٣ من حديث عبد الله بن عباس، عن عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا به،وعقّب الترمذى على روايته قائلا: «هذا =

* وأنّه طريق الصحة والعافية ، والقوة البدنية ، إذ هو يتطلب حركة دائبة ، وسعيًا مستمرًا، والحركة الدائبة، والسعي المستمر هما الطريق إلى الصحة، والعافية، والقوة البدنية، يقول ﷺ : « نضرّ الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فربّ حامل فقه إلى منْ هو أفقه منه، وربّ حامل فقه ليس بفقيه» (١).

* وأنه سبيل جريان الأجر والثواب حتى بعد الموت، يقول ﷺ : «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله،فإنه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة. . .»(٢)، «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » (٣).

* وأنه سبيل الأمان من فتنه القبر ، يقول ﷺ تتميما للحديث المذكور آنفا: « . . . ويؤمن من فتنه القبر» (٤).

ثالثا : سرّ هذه الفوائد وتلك الثمرات :

وسرّ هذه الفوائد وتلك الثمرات، أن الرباط شاق وصعب على النفس، إذ هو

= حديث حسن غريب ، لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه، وعمر بن إبراهيم شيخ بصرى » . وأورده البخارى فى:الصحيح : كتاب الجهاد والسير: باب ما قيل فى درع النبى ﷺ ٤/ ٤٩ من حديث ابن عباس بنحوه مختصرًا، ولفظه : أنه ﷺ قال وهو فى قبة: « اللهم إنى أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم . . . » .

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب العلم : باب فضل نشر العلم ٣ / ٣٢٢ رقم (٣٦٦٠) منْ حديث زيد بن ثابت مرفوعا بهذا اللفظ ، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب ما جاء فى الحث على تبليغ السّماع ٥ / ٣٢ ـ ٣٥ رقم (٢٦٥٦) من حديث زيد بن ثابت مرفوعا به ، وعقب عليه بقوله: « وفى الباب عن عبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وجبير بن مطعم، وأبى الدرداء وأنس، وحديث زيد بن ثابت حديث حسن » ، ورقم (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) من حديث ابن مسعود بمعناه وزيادة : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم ، فإن الدعوة تحيط بهم من ورائهم » ، وعقب عليه قائلا : «هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة باب من بلغ علمًا ١ / ٨٤ ـ ٨٦ رقم (٢٣٠) منْ حديث زيد بن ثابت ، ورقم (٢٣١) من حديث جبير ، ورقم (٢٣٢) من حديث ابن مسعود ، ورقم (٢٣٦) من حديث أنس بن مالك مرفوعا به، وبنحوه، وكتاب المناسك : باب الخطبة يوم النحر ٢ / ١٠١٥ ، ١٠١٦ رقم (٣٠٥٦) من حديث المطعم بن عدى ، وقد تكلم الحافظ شهاب الدين البوصيرى فى : مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ١/ ٣٢ ، ٣٣ ، ٢/ ٦٠ على أسانيد بعض هذه الأحاديث مبينا أنها ثابتة المتون عند الأئمة ، والدارمى فى: السنن : المقدمة ١ / ٧٤ ـ ٧٦ من حديث جبير بن مطعم ، وزيد بن ثابت ، وأبى الدرداء، وأحمد فى: المسند ١/ ٤٣٧ من حديث ابن مسعود ، ٣ / ٢٢٥ من حديث أنس بن مالك ، ٤ / ٨٠ ـ ٨٢ من حديث جبير ابن مطعم ، ٥/ ١٨٣ من حديث زيد بن ثابت ﷺ مرفوعًا .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١١٩ .

(٣) الحديث سبق تخريجه ص ١٢١ .

(٤) الحديث سبق تخريجه ص ١١٩ .

متنوع متعدد الجوانب، فمنه ما هو رباط مع النفس، ومنه ما هو رباط مع الشيطان، ومنه ما هو رباط مع الفساق، ومنه ما هو رباط مع الكفار والمنافقين .

والنفس بطبيعتها فيها ميل وإخلاد إلى الأرض ، وركون إلى الحياة الدنيا بزخرفها، وزهرتها وزينتها .

والشيطان متربص، وقاعد لها بكل طريق كما قالﷺ : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له : أتسلم، وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه وأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر، وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول ؟ قال: فعصاه، فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: هو جَهْد النفس والمال، فتقاتل، فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ قال: فعصاه فجاهد»، فقال رسول اللهﷺ : « فمنْ فعل ذلك منهم فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنّة، أو قتل كان حقا على الله عزّ وجل أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّته كان حقا على الله أن يدخله الجنّة » (١) .

ثم إنّ هذا الشيطان لا يفتأ يوقع بين النفوس حتى يكون التدابر، وتكون القطيعة، والشتات والفرقة:

إذ يقولﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا، وكذا فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم،فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعمْ أنت»، قال الأعمش ـ أحد رواة الحديث: «أراه قال: فيلتزمه»(٢)، «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون فى جزيرة العرب، ولكن فى التحريش بينهم »(٣).

---

(١) الحديث أخرجه النسائى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد ٦/ ٢١، ٢٢ وأحمد فى: المسند ٣/ ٤٨٣ كلاهما من حديث سبرة بن الفاكه ويقال: ابن أبى الفاكه مرفوعا، واللفظ لأحمد.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى :الصحيح : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٤ / ٢١٦٧ رقم (٢٨١٣)، وأحمد فى : المسند ٣ / ٣١٤، ٣١٥ ، ٣٣٢، ٣٥٤، ٣٦٦، ٣٨٤ كلاهما من حديث جابر مرفوعا، واللفظ لمسلم. ومعنى قوله : « فيلزمه » يعنى : يحتضنه ويعانقه تقول: التزم الشيء ، وبالشيء يعنى استمسك به أو اعتنقه ، والتصق به . انظر : لسان العرب لابن منظور ١٢ / ٥٤٢ بتصرف .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: باب تحريش الشيطان ٤/ ٢١٦٦ رقم (٢٨١٢) ، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى التباغض ٣ / ٢٢١ ، ٢٢٢ رقم (٢٠٢٢) ، وأحمد فى : المسند ٣ / ٣١٣ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ كلهم من حديث أبى سفيان عن جابر مرفوعا ، وعقّب الترمذى قائلا : « هذا حديث حسن ، وأبو سفيان اسمه طلحة بن نافع » ، وهذا لفظ مسلم .

وأن له أعوانا، وجندًا من الإنس يأتمرون بأمره، وينزلون على حكمه، يسلطهم على هذه النفوس ليكيدوا لها : تارة بالإغراءات المادية من مال ، ومنصب ، ورئاسة ، وجاه، وتارة باختلاق التهم والأباطيل، وتارة بالإخراج والنفى، والتشريد فى الأرض، وتارة بالتعذيب والتنكيل والقتل.

فإذا ما جاهد المسلم نفسه ضدّ هذه جميعا، وظل مرابطا مستعدا حتى يأتيه الموت وهو على ذلك، فقد أفسح الطريق ، وفتح الباب أمام الناس ليحيوا الحياة الطيبة الكريمة فى الدنيا ، وأقل ما يكافأ به هذا المسلم المرابط أن يفوز بالفوائد والثمرات التى قدمنا ، وأن يجرى عليه من الأجر حتى بعد موته مثل أجور من استفادوا برباطه، ومنْ عملوا مثل عمله مصداقا لقوله ﷺ : « منْ دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»(١)، «منْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا »(٢)، «. . . فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح :كتاب الإمارة : باب فضل إعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره ٣/ ١٥٠٦ رقم ١٣٣ (١٨٩٣) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما جاء فى الدال على الخير ٤ / ٣٣٣ رقم (٥١٣٩) ،والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب ما جاء فى الدّال على الخير كفاعله ٥ / ٤١ ، ٤٢ رقم (٢٦٧١) كلهم من حديث أبى مسعود البدرى ، وقال الترمذى عقب حديثه : « هذا حديث حسن صحيح » ، وزاد رواية أخرى من حديث أنس بن مالك ، ثم عقّب عليها بقوله : « هذا حديث غريب من هذا الوجه ، من حديث أنس عن النبىّ ﷺ » ، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٢٠ ، ٥ / ٢٧٤ من حديث أبى مسعود البدرى مرفوعا، ٥ / ٣٥٧ من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعا . وسبب ورود الحديث كما فى مسلم ، أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أُبدع بى - يعنى هلكت دابتى ، وهى مركوبى - فاحملنى، فقال :« ما عندى » ، فقال رجل : يارسول الله، أنا أدله على منْ يحمله ، فقال رسول الله : « منْ دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى مختصرا فى : الصحيح (الترجمة) : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب إثم من دعا إلى الضلالة أو سنّ سنة سيئة ٩ / ١٢٧ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ومنْ دعا إلى هدى أو ضلالة ٤ / ٢٠٦٠ رقم ١٦ (٢٦٧٤) وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة: باب لزوم السنة ٤ / ٢٠١ رقم (٤٦٠٩) ، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم: باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى ٥ / ٤٣ رقم (٢٦٧٤) ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب منْ سنّ سنة حسنة أو سيئة ١ / ٧٥ رقم (٢٠٦) ، وأحمد فى : المسند ٢ / ٣٩٧، ٥٠٥ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به ، وبنحوه ، وتمام لفظه كما فى : مسلم : « . . . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام منْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الجهاد : باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٤/ ٥٧، ٥٨ ، باب فضل من أسلم على يديه رجل ٤ / ٧٣ ، وكتاب أصحاب النبى ﷺ : باب من فضائل على ﷺ ٥/ ٢٢ ، ٢٣ ، وكتاب المغازى : باب غزوة خيبر ٥ / ١٧١ ، ومسلم فى : الصحيح: كتاب فضائل الصحابة : باب منْ فضائل على ﷺ ٤ / ١٨٧١ - ١٨٧٣ ، رقم (٣٣ - ٣٥)، والترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب مناقب على بن أبى طالب ﷺ ٥/ ٦٣٨ رقم (٣٧٢٤) ، كلهم من =

ولا تعارض بين الحديث وبين قوله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء : منْ صدقة جارية ، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[١] ؛ لأنه تقدم تفسير الرباط بملازمة أخذ الأهبة والاستعداد للجهاد بكل حال، فيشمل ذلك الأصناف الثلاثة المذكورة فى هذا الحديث، وما فى معناها من الحج، والصوم عن الغير ونحوها، وكأنها جميعا داخلة ضمن الرباط فى سبيل الله والموت على هذا الرباط .

رابعا : ماهية فتنة القبر وسبيل النجاة :

وفتنة القبر هى عدم التوفيق فى الجواب عند السؤال، إذ جاءت نصوص كثيرة تؤكد وقوع السؤال فى القبر، وأن الناس فى الجواب عن سؤال القبر فريقان:

فريق مؤمن سعيد ، وهذا يوفق فى الجواب .

وفريق كافر أو عاص شقى ، وهذا لا يوفق فى الجواب.

ومن هذه النصوص :

قوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)** ﴾ [إبراهيم].

= حديث سهل بن سعد مرفوعا بنحوه ، وبمثله ، وزاد مسلم روايتين : إحداهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه والأخرى من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، ولفظ مسلم عن سهل بن سعد أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبهّ الله ورسوله »، قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، قال : فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : « أين على بن أبى طالب ؟» فقالوا : هو يا رسول الله ﷺ يشتكى عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال علىٌّ : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال: « انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم للإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ». وحمر النعم : هى الإبل الحمر، وهى أنفس أموال العرب ، يضربون بها المثل فى نفاسة الشىء وإنه ليس هناك أعظم منه . انظر: لسان العرب لابن منظور ٤ / ٢١٠ .

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الوصية : باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/ ١٢٥٥ رقم (١٦٣١) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الوصايا : باب ما جاء فى الصدقة عن الميّت ٣/ ٣٠٠ رقم (٢٨٨٠) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب فى الوقف ٣ / ٦٦٠ رقم (١٣٧٦) ، والنسائى فى : السنن : كتاب الوصايا : باب فضل الصدقة عن الميّت ٦ / ٢٥١ ، كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

وقوله ﷺ : «إذا أقعد المؤمن في قبره أُتِيَ، ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾»(١)، وتلا ﷺ : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ فقال: «ذلك إذا قيل له في القبر: مَنْ ربُّك ؟ وما دينكَ ؟ ومَنْ نبيُّك ؟ فيقول: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنتُ به، وصدقتُه، فيقال: صدقتَ، على هذا حييتَ، وعليه تبعثُ إن شاء الله»(٢)، «إن العبد إذا وضع في قبره وتولَّى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ـ يعني محمدا ـ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك في النَّار قد أبدلك الله به مقعدا في الجنَّة، فيراهما جميعا »(٣).

وأنه ﷺ دخل نخلا لبني النجار، فسمع صوتا ففزع، فقال: «مَنْ أصحابُ هذه القبور؟» قالوا: يا نبي الله ، ناس ماتوا في الجاهلية، فقال: « نعوذ بالله مِنْ عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة الدجال ». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، وإن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك، فيقول له: ما كنتَ تعبد، فإن اللهُ هداه ـ وفي رواية القطان: فإن هداه الله عز وجل ـ فيقول: كنتُ أعبد الله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل، فيقول: هو عبد الله ورسوله» قال: « فما سئل عن شيء غيرها، فينطلق به إلى بيت كان له في النار فيقال له: هذا بيتك كان في النَّار، ولكن الله عزَّ وجلَّ عصمك، ورحمك ،فأبدلك به بيتا في الجنة، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشِّر أهلي، فيقال له: اسكن، وإن الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك فينهره فيقول : ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري، فيقول: لا دَرَيت ولا تَلَيْتَ، فيقول: ما كنتَ تقول في هذا الرجل، فيقول: كنتُ أقول ما يقول الناس » قال : « فيضربه بمطراق مِنْ حديد بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها الخلق غير الثقلين »(٤).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الجنائز: باب ما جاء في عذاب القبر ٢/ ١٠١ من حديث البراء مرفوعا. (مصور عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م).

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في: إثبات عذاب القبر ص٢٩ من حديث أبي هريرة مرفوعا بهذا اللفظ، وأورده ابن كثير في: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٣٤.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/ ٢٢٠٠، ٢٢٠١ رقم (٢٨٧٠) من حديث أنس بن مالك مرفوعا، وأورده البيهقي في: إثبات عذاب القبر ص٣٣ من حديث قتادة عن أنس بن مالك مرفوعا.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب السنة: باب في المسألة في القبر وعذاب القبر ٤/ ٢٣٨ ، ٢٣٩ رقم (٤٧٥١) ، وأحمد في: المسند ٣/ ٢٣٣ كلاهما من حديث البراء بن عازب ﷺ مرفوعا، وأورده البيهقي في : إثبات عذاب القبر ص ٣٣ ، ٣٤ من حديث البراء بن عازب مرفوعا ، والحديث له شواهد كثيرة صحيحة .

وعن البراء رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولم يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأنَّما على رءوسنا الطير، فجعل يرفع بصره، ينظر إلى السماء، ويخفض بصره، وينظر إلى الأرض، ثم قال: « أعوذ بالله مِنْ عذاب القبر»، قالها مرارا، ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان في قِبَلٍ من الآخرة، وانقطاع من الدنيا، جاءه ملك، فجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة مِنَ الله ورضوان، فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السماء، وتنزل ملائكة من الجنَّة بيض الوجوه، كأنَّ وجوههم الشمس معهم أكفان من أكفان الجنَّة، وحنوط من حنوطها، فيجلسون منه مدَّ البصر، فإذا قبضها لم يدعوها في يده طرفة عين فذلك قوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ » [الأنعام] قال: «فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت فتعرج به الملائكة ، فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذه الريح؟ فيقال: فلان بأحسن أسمائه، حتى ينتهوا إلى أبواب سماء الدنيا، فيفتح له ، وتشيِّعُه مِنْ كلِّ سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة، فيقال : اكتبوا كتابه في عليين، ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإنِّي وعدتهم أنِّي منها خلقتهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرى »، قال : « فيرد إلى الأرض وتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار ، فينتهرانه ، ويجلسانه فيقولان: مَنْ ربك، وما دينك ؟ فيقول : ربي الله، وديني الإسلام، فيقولان : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان: وما يدريك ؟ فيقول: جاءنا بالبينات مِنْ ربِّنا، فآمنتُ به، وصدقته»، قال: وذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] » ، ثم قال : « وينادي مناد من السماء أن قد صدق عبدي ، فألبسوه من الجنة وأفرشوه منها ، وأروه منزله منها، فيلبس من الجنة ، ويفرش منها ، ويرى منزله فيها ، ويُفْسح له مدَّ بصره ، ويمثَّل له عمله في صورة رجل حسن الوجه، طيب الريح ، حسن الثياب ، فيقول : أبشر بما أعدَّ الله لك، أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول : بشَّرك الله بخير، مَنْ أنت؟ فوجهك الوجه الذي جاءنا بالخير، فيقول: هذا يومك الذي كنت توعد، والأمن الذي كنت توعد ، أنا عملك الصالح ، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله، بطيئا في معصيته ، فجزاك الله خيرا ، فيقول : يا رب ، أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: « وإن كان كافرا، فاجرا، وكان في قبل من الآخرة، وانقطاع من الدنيا جاءه

ملك فجلس عند رأسه ، فقال: اخرجى أيتها النفس الخبيثة، أبشرى بسخط الله وغضبه، فتنزل ملائكة سود الوجوه، معهم مسوح، فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين » قال: « فتفرق فى جسده، فيستخرجها تقطع معها العروق، والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبلول ،فتؤخذ من الملك، فتخرج كأنتن ريح وجدتْ، فلا تمر على جند فيما بين السَّماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ؟ فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسمائه ، حتى ينتهوا به إلى السَّماء الدنيا، فلا يفتح له، فيقول: رُدُّوه إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرى »، قال: « فيرمى من السماء »، فتلا هذه الآية: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ** (٣١) ﴾ [الحج] . ، قال: «فيعاد إلى الأرض، وتعاد فيه روحه، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان : فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فلا يهتدى لاسمه ، ويقال: محمد ، فيقول : لا أدرى، سمعت الناس يقولون ذلك ، فيقال: لا دريت ، فيضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه، ويتمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقول: أبشر بعذاب الله وسخطه، فيقول: مَنْ أنتَ؟ فوجهك الوجه الذى جاء بالشرِّ، فيقول: أنا عملك الخبيث، والله ما علمتك إلا كنتَ بطيئا فى طاعة الله، سريعا فى معصيته فيقيَّض له أصمُّ أبكم معه مرزبَّة لو ضرب فيها فيل صار ترابا ـ أو قال: رميما ـ فيضربه ضربة تسمعها الخلائق إلا الثقلين، ثم تعاد فيه الروح، فيضربه ضربة أخرى»[1]، إلى غير ذلك من النصوص.

وسبيل النجاة من فتنة القبر تتمثل جملة فى الإيمان، والعمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، كما قال سبحانه : ﴿ **وَالْعَصْرِ** (١) **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ** (٢) **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** (٣) ﴾ [سورة العصر].

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب السنة: باب فى المسألة فى القبر وعذاب القبر ٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ رقم (٤٧٥٣)، وأحمد فى: المسند [٧/ ٧٤ الفتح الربانى] ،وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد ٣/ ٤٩، ٥٠ وعزاه إلى أحمد قائلا : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» ، وأورده البيهقى فى: إثبات عذاب القبر ص ٣٧ ـ ٣٩ كلهم من حديث البراء بن عازب ﷺ مرفوعا، وعقَّب عليه قائلا: « هذا حديث كبير صحيح الإسناد رواه جماعة من الأئمة الثقات عن الأعمش، وأخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث فى كتاب السنن».

أما تفصيلا فقد جاءت النصوص ببعض الأعمال التى تكون سببا فى النجاة من فتنة القبر، ونذكر منها:

* الرباط: كما نطق بذلك الحديث الذى نحن بصدد شرحه الآن.

* الشهادة: فقد سأل رجل رسول الله ﷺ: فقال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ فقال: « كفاه ببارقة السيوف على رأسه فتنة »[١].

* الصلاة، والصيام، والزكاة، وفعل الخيرات من الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس: فقد جاء فى الحديث أنَّه ﷺ قال: « إن الميت إذا وضع فى قبره، إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولُّون عنه، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى مِنْ قِبَل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى مِنْ قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات ـ من الصدقة، والصلة، والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قِبَلى مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثِّلتْ له الشمس قد دنَتْ للغروب، فيقال له: هذا ما تقول فيه، فيقول: دعونى أصلِّى»، قال: «فيقولان: إنك ستفعل هذا، فأخبرنا عما نسألك عنه »، قال: «عما تسألونى»، قال: « ماذا تقول فى هذا الرجل الذى فيكم، وبماذا تشهد عليه؟ فيقول: أشهد أنَّه رسول الله ﷺ جاء بالحق مِنْ عند الله، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك متَّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال: انظر إلى مقعدك منها، وما أعد الله عزَّ وجلَّ لك فيها، فيزداد غبطةً وسرورا، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا، وينور له، ويعاد الجسد كما بدأ منه، وتجعل نسمتُه من النَّسم الطيب، وهى طائر يعلق فى شجر الجنة، فينام نومة العروس لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله ـ عز وجلَّ... » الحديث[٢].

---

(١) الحديث أخرجه النسائى فى: السنن: كتاب الجنائز: باب الشهيد ٤/٩٩ من حديث ليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، أن صفوان بن عمرو حدَّثه، عن راشد بن سعد، عن رجل مِنْ أصحاب النبى ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ ... الحديث.

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان فى: صحيحه [رقم (٧٨١) موارد الظمآن]، والحاكم فى: المستدرك: كتاب الجنائز: باب الميِّت يسمع خفق نعالهم ١/٣٧٩، ٣٨٠، والبيهقى فى: إثبات عذاب القبر ص ٦١، ٦٢، واعتقاد السلف ص ١٠٨ كلهم مِنْ حديث أبى هريرة مرفوعا، وإسناده حسن، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد ٣/٥١، ٥٢ وعقب عليه بقوله: « رواه الطبرانى فى الأوسط، وإسناده حسن».

* **المواظبة على قراءة سورة الملك** : فقد جاء فى الحديث : أن النبى ﷺ قال : « فى القرآن سورة ثلاثون آية شفعتْ لصاحبها حتى غفر له، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الملك] » (١).

وقال عبد الله بن مسعود: « سورة تبارك هى المانعة، تمنع بإذن الله تبارك وتعالى مِنْ عذاب القبر، أتى رجل مِنْ قِبَل رأسه، فقالتْ له: لا سبيل لك على هذا، إنه كان قد دعا فىَّ ـ سورة الملك ـ وأُتِىَ مِنْ قبل رجليه، فقالتْ رجلاه : لا سبيل لكم على هذا، إنه كان يقوم بى ـ بسورة الملك ـ فَمَنَعَتْه بإذن الله من عذاب القبر، وهى فى التوراة سورة الملك، مَنْ قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطنب »(٢).

* **كثرة الاستعاذة بالله مِنْ عذاب القبر**: كما مرَّ فى الأحاديث التى ذكرنا آنفا.

* **دعاء المؤمنين للمؤمن بالتثبيت عند السؤال بعد الفراغ من الدفن** : فقد كان مِنْ هديه ﷺ إذا فرغ من دفن الميِّت أن يقول لمن معه: «استغفروا لميِّتكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسْأل »(٣).

خامسا: بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل الرباط :

وقد وردت نصوص أخرى غير الحديث الذى نحن بصدد شرحه الآن فى فضل الرباط، نذكر منها :

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السُّنن: كتاب أبواب فضائل القرآن: باب ما جاء فى فضل سورة الملك ٥/ ١٦٤ رقم (٢٨٩١) من حديث أبى هريرة مرفوعا، وعقب عليه قائلا: « هذا حديث حسن»، والحاكم فى: المستدرك: كتاب التفسير: باب تفسير سورة الملك ٢/ ٤٩٧، ٤٩٨ من حديث أبى هريرة مرفوعا، وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وأقره الذهبى على ذلك فى تلخيص المستدرك ، وأورده البيهقى فى: إثبات عذاب القبر ص ١٠٠ من حديث أبى هريرة، وقال: « حسن الإسناد » .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى : المستدرك : كتاب التفسير : باب تفسير سورة الملك ٢/ ٤٩٨ موقوفا على ابن مسعود ﷺ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وأقرَّه الذهبى على ذلك فى : التلخيص ، وأورده البيهقى فى : إثبات عذاب القبر ص ٩٩ موقوفا : على ابن مسعود ، ومثل هذا مما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه، لا سيَّما وابن مسعود ليس معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب ، أو رواية الإسرائيليات ، فله إذن حكم المرفوع.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى قتل الحيَّات ٤/ ٣٦٥ رقم (٥٢٥٧) من حديث أبى سعيد مختصرا، والحاكم فى: المستدرك: كتاب الجنائز: باب الاستغفار وسؤال التثبيت للميِّت عند الدفن ١/ ٣٧٠ من حديث عثمان بن عفَّان مرفوعا، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الإسناد، ولم يخرجاه »، وأقرَّه الذهبى على ذلك فى التلخيص، وأورده البيهقى فى: إثبات عذاب القبر ص ٤٧ من حديث هانئ مولى عثمان بن عفان مرفوعا، كما أورده فى: السنن الكبرى ٤/ ٥٦.

قوله ﷺ : « رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه، فإن مات جرى عليه الرباط، ويؤمن مِنْ الفتَّان، ويقطع له رزق فى الجنَّة »[١]، « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها »[٢]، « رباط شهرخير من صيام دهر، ومَنْ مات مرابطا فى سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وغُدِىَ عليه برزقه ، وريحَ من الجنة ، ويجرى عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله ـ عزَّ وجلَّ »[٣]، «مَنْ سنَّ سنة حسنة فله أجرها ما عمل بها فى حياته، وبعد مماته حتى تترك، ومَنْ سنَّ سنة سيئة فعليه إثمها حتى تترك، ومَنْ مات مرابطا فى سبيل الله جرى عليه عمل المرابط فى سبيل الله حتى يبعث يوم القيامة»[٤]، « منْ رابط ليلةً حارسا مِنْ وراء المسلمين كان له أجر مَنْ خلفَه ممَّنْ صامَ، وصلَّى»[٥]، إلى غير ذلك من النصوص.

سادسا: العوامل التى تساعد على غرس روح الرباط فى نفس المسلم :

وهناك عوامل كثيرة تساعد على غرس روح الرباط فى نفس المسلم، نذكر منها:

١ـ التعريف بالله تعالى وبحقِّه على العباد ، فإن ذلك من شأنه أن يحمل المسلم على المبادرة بأداء هذا الحق، والذى يتمثل فى الجملة فى الرباط فى سبيل الله.

٢ـ بيان المصير، وسبيل النجاة، وسيظهر بعد هذا البيان أن الرباط هو سبيل النجاة.

٣ـ تبصير المسلم بدوره، ورسالته فى الأرض، ومنزلته ومكانته عند الله.

٤ـ التبصير، والتذكير بفوائد وثمرات الرباط فى الدنيا والآخرة.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل الرباط فى سبيل الله ٣ / ١٥٢٠ رقم (١٩١٣) من حديث سلمان مرفوعا، والنسائى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب فضل الرباط ٦/ ٣٩، ٤٠، وأورده البيهقى فى: إثبات عذاب القبر ص٩٦ من حديث سلمان، وعزاه إلى مسلم فى صحيحه.

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٣) الحديث أورده المنذرىُّ فى: الترغيب والترهيب: كتاب الجهاد: باب الترغيب فى الرباط فى سبيل الله عزَّ وجلَّ ٢/ ٢٤٣ منْ حديث أبى الدرداء ﷺ مرفوعا، وعقب عليه بقوله:« رواه الطبرانى، ورواته ثقات ».

(٤) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الجهاد: باب الترغيب فى الرباط فى سبيل الله عزَّ وجلَّ ٢/ ٢٤٥ من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ مرفوعا، وعقب عليه قائلا : « رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به ».

(٥) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الجهاد: باب الترغيب فى الرباط فى سبيل الله عزَّ وجلَّ ٢/ ٢٤٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعا ، وعزاه إلى الطبرانى قائلا: «رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد».

٥ـ تبصير المسلم وتذكيره بحقيقة عدوه، وأسلوبه فى الكيد والمكر، وأن الرباط أفضل السبل لمواجهة هذا الكيد، وذلك المكر.

٦ـ دوام النظر فى سير المرابطين، وسماع أخبارهم، بل ومعايشة الأحياء منهم، فإن ذلك يحمل على الاقتداء والتأسِّى أو على الأقل المحاكاة والتشبه.

٧ـ النزول عمليا إلى ميدان الرباط، فإن الميدان هو خير وسيلة للتربية والبناء، ولكن بالتدرج، وأن يكون الأمر على مراحل لئلا تضعف النفس البشرية، فيكون اليأس والقنوط، أو السأم والملل.

هذا ولمعرفة المزيد من هذه العوامل، فإن هناك رسالة لكاتب هذه السطور بعنوان: «منهج الرسول ﷺ فى غرس الروح الجهادية فى نفوس أصحابه». فليراجعها مَنْ شاء.

ما يستفاد من الحديث دعويا وتربويا:

ويستفاد من الحديث من الناحية الدعوية والتربوية عدة فوائد، نذكر منها:

١ـ سعة رحمة الله تعالى، حيث يموت صنف من الناس، ومع ذلك تجرى عليهم حسناتهم، وأرزاقهم، وهم تحت التراب، بسبب ما قدَّموا مِن عمل صالح تعداهم إلى غيرهم من الناس، ويسمى هؤلاء باسم المرابطين فى سبيل الله.

٢ـ فضل الرباط فى سبيل الله، حيث يكون سببا فى حماية الحق وصيانته من كيد الكائدين، وعبث العابثين، فيحيا من حيَّ عن بيِّنة، ويهلك مَنْ هلك عن بيِّنة.

٣ـ أن الناس يفتنون فى قبورهم إن كانوا طالحين، ويؤمنون من هذه الفتنة إن كانوا صالحين، وأن الرباط فى سبيل الله من أسباب الأمن من فتنة القبر، ومن الفزع الأكبر.

٤ـ أن الرباط فى الإسلام أوسع دائرة، وأبعد مدى من مجرد الحراسة وملازمة الثغور، أجل إنه يتناول الإسلام كله، من لدن مواجهة العدو فى أرض المعركة حتى استحضار نية الرباط فى سبيل الله، وصدق الله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].